المعاهدة بين مصر و بريطانيا

١ — انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور

٢ — يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر ويمثل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية

٣ — تنوى مصر أن تطلب الانضمام الي عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها ستؤيد أي طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عنها فى المادة الاولى من عهد العصبة

٤ ..تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما

٥ — يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بان لايتخذ فى علاقاته مع البلاد الاجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة وان لايبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية

٦ — اذا افضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يتبادل الطرفان المتعاقدان الرأي لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لاحكام عهد عصبة الامم أو لاى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة

٧ — اذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فان الطرف الآخر يقوم فى الحال بانجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة احكام المادة العاشرة الآتى ذكرها

وتقتصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم او قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الاراضى المصرية مع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانئه ومطاراته وطرق المواصلات

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة

٨ - بما أن قنال السويس الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضاً طريق أساسى للمواصلات بين الاجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الاراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق

هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها. ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الاحوال كما انه لا يخل بأي وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية

ومن المتفق عليه انه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين السنة المحدودة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لأن الجيش المصري أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

٩ — يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به من اعفاء وميزات فى المسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة بمصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة

١٠ — ليس فى أحكام هذه المادة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأى حال من الاحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨

١١—١ مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على ان ادارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الاولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان

٢ـ بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوافر لها سودانيون أكفاء

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين

٤ — تكون الهجرة المصرية الى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام

٥ — لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين، وبين الوطنيين المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة أو فى الملكية

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الاحكام الواردة فى ملحق المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصير بها المعاهدات الدولية سارية فى السودان

١٢ — يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الاجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد

١٣ — يعترف صاحب الجلالة المليك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في الغاء هذا النظام دون ابطاء

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الخصوص في ملحق هذه المادة

١٤ — تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التي يكون استمرار بقائها منافياً لاحكام هذه المعاهدة ويجب أن يعد باتفاق الطرفين إذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك في مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة

١٥ — اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أي خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الامم

١٦ — يدخل الطرفان المتعاقدان في مفاوضات بناء على طلب أي منهما في أي وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما في نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك .

فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التي أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقاً لاحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو إلى أي شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

ومن المتفق عليه أن أي تفسير في المعاهدة عند اعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادىء التي تنطوي عليها المواد ٤ و٥ و٦ و٧

ومع ذلك فني أي وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول في مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد اعادة النظر فيها كما سبق بيانه

١٧ — يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها في القاهره في أقرب وقت ممكن ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الامم

واقرارا بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم على هذه المعاهدة ووضعوا اختامهم عليها

ولز يؤبن نفسه

طلبت احدى المجلات من المستر ولز أن يؤبن نفسه فكتب هذا التأبين التالي:

إن اسم ه . ج . ولز الذى مات بالامس بالسكتة القلبية فى ملجأ بادنجتون قد لايثير شيئاً من الذكريات فى نفوس الشبان من الجيل الحديث . ولكن أولئك الكهول الذين يستطيعون أن يرجعوا بذاكرتهم إلى حلقات السنين الاولى من القرن الحالى ، والذين ساهموا فى قراءة ثمرات المطابع المختلفة فى تلك الفترة ، قد يذكرون بعض عنوانات الكتب التى ألفها ولز . بل ربما استطاعوا أن يعثروا على مجلد أو مجلدين من مؤلفاته فى مكان مهجور على سطح منزل قديم



ه . ج . ولز

لقد كان ولز حقامن أخصب الكتاب الأجورين وأكثرهم انتاجا . وهو لم يؤلف الكتب بنفسه فقط . ولكن هناك دراسات نقدية بل مجلدات موجزة كتبت عنه . حتى لقد بلغ عدد الكتب المندرجة تحت اسمه فى فهرس ذلك الضريح الادبى الضخم — أعنى قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى بلندن . التى لايؤمها الآن أحد من القراء — نحو ستمائة كتاب

وقبل خمس سنوات أذاعت مجلة لندن دراسة شائقة عن ولز للآنسة فيلبس ليون . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث مايمكن أن يغير رأيها فيه . فهى تصفه بأنه شيء بين رمز التشاؤم ورائد للمستقبل

وقد كتب ولز سيرة حياته فى صراحة ووضوح وطبعها فى سنة ١٩٣٤ . ثم أضاف اليهاملحقا لم يطبع أبداً . غير أن الراغب فى الاستقصاء يمكنه أن يطلع عليه بين مجموعة المخطوطات المحفوظة فى المتحف البريطانى . وهذه الوثائق تدل على أن أصله من عامة الشعب وانه من حيث المكانة الاجتماعية يمكنه أن يتتبع أسماء أجداده حتى القرن الثامن عشر . فهو ينتسب إلى طبقة المزارعين

من الانجليز . وقد ولد فى سنة ١٨٦٦ وكان أبوه فى الأصل بستانيا ثم اشتغل بالتجارة فى حانوت صغير واحترف لعبة الكريكيت . وأما أمه فكانت ابنة فندق . واشتغلت وصيفة قبل زواجها ثم مدبرة منزل بعد الزواج

ولعل أعظم مايثير الاهتمام من شئون ولز هو عدم تسليمه بالمكانه الاجتماعية التى يظهر أنه ولد فيها واصراره على أن يكون مراطنا حراً فى ذلك العالم الجديد الذى تكشفت عنه الحروب الطاحنة التى دارت بين القوميات المتطرفة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

وكانت لدى ولز قدرة عجيبة على أن يتشمم المستقبل كما يتشمم الكلب الطريق . وكان ديموقراطيا حراً . بمعنى انه كان يطالب بحقه المطلق فى حرية التفكير وحرية النقد والبحث والارتياء . وكان اشترا كيا بعدائه الذي لاشك فيه لجميع ضروب الالتزام سواء أكان فرديا أم قوميا أم سلاليا

وكان ولز يزهى بعقارنة نفسه بروجر بيكون . فقد حاول أن يضع ترسيما شاملا لدائرة المعارف العالمية الراهنة بتأليفه « خلاصة التاريخ » وهو كتاب لايذكره أحد الآن و « عمل الانسان وثروته وسعادته » و « تشريح الجيبة » واشتراكه فى تأليف كتاب « علم الحياة » وما زالت تلك المحاولات منظوراً اليها بعين الاكبار والاجلال لما اتصفت به من جراءة التفكير وسموالغاية. وذلك على الرغم من أن ما اضطر اليه ولز من العجلة والاختصار والاوجة فى تلك الكتب يجعلها غير جديرة بأن تعد مساهمة جدية فى التثقيف العام .

كتب ولز مقالات كثيرة جداً فى الشئون العامه . وكانت قصصه أكثر من مقالاته . فقد ألف كثيرا من القصص العلمية الخيالية التى فقدت ماكان لها من جدة وطرافة قبل زمن طويل بسبب تقدم العلوم وازدياد المعارف العامه . ثم أنه كتب روايات ليس فيها تلك الدقه فى وصف الظروف وسرد الحوادث التى لروايات معاصريه « جالزورثى » و « أرنولد بنت » وقيمتها التاريخية . فضلا عن خلو رواياته من تلك الصراحه الجريئه التى خلعت صفه الخلود على أمثال رواية « أشندن » للروائي « موجهام » وعلى كثير من روايات الكتاب الامريكيين الشبان الذين عاصروه

كان ولز قبل كل شىء من رجال الذهن . فى نفسه كراهه غريزية للتحمس والحدة والنعرات الوطنيه والتحزب والتعصب وسيطرة العواطف على شئون الحياة . وهو عند مايعالج العاطفه فى مؤلفاته يكون معرضا لان يكتب فى غير نزاهة واخلاص

وكان اذا احتد وثارت نفسه لا يعدو أن يغضب غضبا هادئا كلما وقعت عينه على أولئك المزهوين بصفاتهم الذهنية أو الخلقية

هل يعتبر ولز كاتبا فكها ؟ لقد ثار الجدل حول هذه المسألة فى تلك المحاولات الاولى التى أريد بها أن يكون للفلم السينمائى معنى وقصد معين . وهو يقول انه لايطيق التنظيم فقد كان هو السبب الاول فى ضياع جهوده السينمائية . فان أولئك المنظمين الذين يقصون أجزاء الفلم الغير المرغوب فيها يقضون القضاء الاخير على البقية الضئيلة من الآراء التي يكون المخرج قد غفل عن القضاء عليها . ولكن من يدرى . لعل المنظمين كانوا أعرف من ولز بما يتطلبه الفلم من شروط النجاح

وقد جرح ولز جرحا بالغا فى عراك نشب مع بعض الغوغاء من الفاشيين على أثر نوبة مفاجئة من النقمة عليه فى سنة ١٩٣٨ ثم أخذت صحته تنحط بعد ذلك على أثر اعتقاله فى مركز المبعدين أيام الدكتاتورية السيوعية سنة ١٩٤٢

ومنذ ذلك الوقت فارقته تلك الحيوية التي كانت يوما ما زاخرة فياضة . فلم تعد له أى مشاركة فيما شاهدناه فى السنين العشر الماضية من نهضة رائعة قوية فى ميادين الفكر والاجتماع وذلك على الرغم من أن تلك النهضة قد رسمت خطاه الى حد كبير جدا . وهكذا أصبح ولز رجلا منسيا بعد أن كان من رواد الفكر المبرزين . وفى سنة ١٩٥٥ منحته الحكومة معاشا صغيرا لكى يتمكن من سد نفقاته الضرورية . وكان يقيم فى منزل صغير قريب من ريجنت بارك . وكثيرا ما كان يرى فى الحدائق المجاورة وقد تقوس ظهره وأصبح جسمه هزيلا ضئيلا مترهلا . وكان كثيرا مايرى فى الحدائق المجاورة قاعداً يتأمل فى تكاسل تلك القوارب التي تسبح فى البحيرة والازهار القريبة ، او متنقلا هنا وهناك متكئاً على عصاً متعثراً فى مشيته البطيئة . وهو يسعل او يكلم نفسه قائلا « سيأتى اليوم الذى اكتب فيه كتابا ، كتابا بمعنى الكلمة » . وقد احسنت الآنسة فيليس ليمون عند ما قارنته بحيوان المرجان الذى يتفرع ويبنى الجزر بالصخر الذى تفرزه اجسامه . لقد كان ولز عالما اكثر منه فنانا . وذلك على الرغم من أنه اتخذ الاسلوب الادبى وسيلة للتعبير عن آرائه

ولا يكاد يكون لولز اى اثر الآن . ومع ذلك فلولاه هو وامثاله لما كان الصخر الذى تبنى عليه حضارتنا القائمة

الدورة الشهرية ونظرية التطور

للاستاذ رمسيس شحاته

لقد ترددت كثيراً فى كتابة هذه المقالة حتى كدت أقلع عن كتابتها نهائيا. ترددت فى أول الأمر من حيث الشكل . وكان هيكل الموضوع قد استقام لى من قبل . وقد كان ترددي فى الشكل مع انى لا أقيم له اعتبارا كبيرا لأننى خشيت أن ينزل التبسيط والايضاح إلى حد الابتذال والمجانة

ثم ترددت بعد ذلك فى الموضوع أيضا لأننى خفت أن يبدو عديم الفائدة فى أعين القراء لو قصرت الكلام على الناحية العلمية مهملا ما عداها من النواحى الأخرى . وتبينت عندئذ أن الموضوع لابد وان يظهر كعروس ليس لها روح أو كصورة فنية اختلطت أجزاؤها ففقدت معناها. وزاد حيرتى وترددى أننى لم أجرؤ على معالجة الأمر من الناحية العملية فقط أو الافاضة فى الكلام عنها لأن ذلك يقودنا قسرا إلى مشكلة تحديد النسل وهى مشكلة شائكة كثيراً ما تحطمت عليها جهود الباحثين دون أن تنتج أثرا إلا اثارة نقاش عقيم وجدل أقرب ما يكون إلى السفسطة مما لا فائدة منه أو طائل تحته

وكادت كل هذه النوازع تثنينى عن عزمى وتقعدنى عن الكتابة لولا أن هناك دوافع قوية وأسبابا قوية لها من الأهمية فى نظري ماليس لأى تلك النوازع وخصوصا وقد ظهر لى أن قليلا من الحكمة يمكننا من تجنب الزلل فى أغلب المواضع

أهم هذه الدوافع والأسباب هو ذلك الجهل السائد بين عامة الناس من هذه الناحية اذ لم أر وظيفة من الوظائف العضوية قد تخبط الناس فى فهمها وتقدير الغاية منها كالوظيفة العضوية التى سنتكلم عنها فيما يلى:

نزعم أن ذلك الفهم سهل ميسور فوق انه أداة قوية لحل كثير من المشكلات المعقدة التى كثيرا ما تحطمت عليها السعادة العائلية

وإلى ما تقدم فان موضوع تحديد النسل ولو أنه موضوع معقد ملتو قد خرج أو كاد يخرج نهائيا من حيز الموضوعات الاجتماعية الدينية إلى حيز الاختصاصات الفنية والمسائل العلمية . إنه وإن كان من الصعب أن يظفر منى القارىء برأي واضح فى جواز التحكم فى النسل أو عدمه وذلك لا لشىء إلا لأنى أربأ بنفسى عن أن أزجها فى ميدان كهذا أعتقد أشد الاعتقاد أن البحث فيه أمر

لاقيمة له ولا فائدة منه إذ هو يدخل فى حدود الأمور الشخصية البحتة،أقول ان الاحجام المتقدم لايعنى ان أقول بأن العلم يضع تحت أيدينا حقائق كثيرة جديرة بالتأمل وقمينة بتحقيق أكبر الفائدة . وهذه الحقائق هى التى نود أن نستعرضها فيما يلى ونحن نستعرضها كحقائق علمية رجاء أن نرى ما يمكن أن يكون لها من تطبيق عملى فيما يلى . وطبيعى أن القارىء بعد ذلك حر فى الحكم على قيمة هذه التطبيقات وجواز استخدامها أو تحريمها فهذه مسألة لا نتعرض لها ولا نود أبدا أن نتعرض لها اعتقاداً منا أنها كما قدمنا أمر شخصى محض

* * *

وأبسط تعريف للعادة الشهرية هو التعريف الآتى : — « هى مجموعة الأعمال الفسيولوجية التى تتم فى الرحم لاعداده لحمل الجنين وهى تتكرر كل ثمانية وعشرين يوما أى كل شهر قمرى »
وهذا الاعداد ينحصر فى سقوط الغشاء المخاطى الرحمى كله أو بعض كمية من الدم وهى الناشئة عن النزف الذى يصحب تمزيق الغشاء الآنف الذكر . وليس تمزيق الغشاء المخاطى هو الغاية فليس هو إلا وسيلة كما سنرى ذلك فيما يلى لاعداد الرحم لحمل الجنين

نرى مما تقدم أن العوارض التى ترافق عملية الدورة الشهرية تنحصر فى تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى ونزوله على مايصحب ذلك من نزف وآلام وقتية وليس هذا هو كل ما يحدث فهناك أعمال داخلية أخرى أكثر أهمية من هذه الظواهر العرضية

وربما تساءل القارىء لماذا يحتاج الرحم إلى عملية الاعداد هذه كل شهر قمري . وما هو السر فى عدم استعداد الرحم فى كل وقت وما هى أسباب ذلك . ونجيب على هذا بأن نقول ان الغاية الحقيقية من العادة الشهرية ليست فى الواقع تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى انما انزال البويضة التى فيه وطردها الى الخارج وهى لم تعد قابلة للاخصاب وذلك لاخلاء محلها لاحلال بويضة أخري جديدة تكون قابلة لذلك . فعملية الاعداد اذن ليست الغاية منها انزال الغشاء المخاطى الرحم، وان كان لذلك أهميته انما الغاية الكبرى هى طرد البويضة التى أصبحت غير قابلة للاخصاب واعداد الرحم لاستقبال بويضة أخرى رجاء اعداده لحمل الجنين إذا تم التلقيح ثم الاخصاب

نرى اذن ان المحرك الأول والدافع الاساسى لعادة الشهرية هو التغيرات التى تطرأ على البويضة فاذا ماتت احتاج الجسم إلى التخلص منها واعداد المحل لبويضة أخرى حية . وحركة البويضات هذه هى فى الواقع السبب فيما يلاحظ من اشتداد فى العاطفة الجنسية فى أوقات العادة الشهرية . وما يصحب ذلك من تغيرات فى أجزاء الجسم الاخرى المتصلة عن قرب أو عن بعد بالاعضاء التناسلية وعلى ذلك فدورة البويضة هى المحرك الاساسى كما قدمنا فى كل ما تترتب منه الدورة الشهرية

ولقد بينت الابحاث الحديثة ان لهذه الدورة أطوارا معينة وانه من الممكن تقسيمها الى مدد متعاقبة لكل مدة منها طابع خاص

وتستغرق هذه الدورة ايضا مدة ثمانية وعشرين يوما كما قدمنا لأن الدورة الشهرية متوقفة أشد التوقف على دورة البويضة نفسها وهى خاضعة لها ومقيدة بها من حيث الوقت والظروف الاخرى

ونعنى مما تقدم أن نزول البويضة من المبيض لايتم الا فى فترات تفصل كل فترتين منهما ثمانية وعشرون يوما. فاذا كان نزول البويضة الاولى فى الاول من شهر قمرى تعاقب نزول البويضات الاخرى فى مثل هذا التاريخ من كل شهر قمرى . ويجب لنزول البويضة الى الرحم أن يكون هذا الاخير على استعداد لاستقبالها . وهو يستعد لهذا الاستقبال كما سبق أن وضحنا ذلك بطرد البويضة الموجودة فيه مع مايصحب ذلك من تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى ونزوله مع النزف المسبب عنه

ونستنتج مما تقدم ان هناك دورتين فى الواقع لا دورة واحدة . الدورة الداخلية وهى دورة استعداد الرحم لاستقبال البويضة الاتية من المبيض . وواضح ان العلاقة بين الدورتين متينة جدا تجعلنا فى حل من ربطهما ببعض وجعلهما دورة واحدة . فالدورة الخارجية مبنية ومقيدة بالدورة الداخلية ومرتبطة بها أشد الارتباط . ومع هذا الارتباط الوثيق نلاحظ ان بين الدورتين تفاوتا فى الزمن وهذا فى الواقع طبيعى جدا اذ لابد من القيام بعمليات الاستعداد قبل قدوم الضيف وحلوله بدار الاستقبال . وقد وجد بالبحث أن هذا التفاوت فى الزمن يقرب من ستة عشر يوما فبلى ذلك نرى اننا نستطيع أن نوضح الدورة الشهرية على الصوره الآتية : —

« هب أن النزف وخروج البويضة الميتة وتكون هذا المجموع مانعبر عنه بالدورة الخارجية قد تم فى الاول من شهر قمرى فان نزول البويضة الجديدة وهى الضيف المنتظر إلى الرحم لايتم إلا بعد ١٦ يوما كاملا . وتظل هذه البويضة من الرحم المدة الباقية من الدورة الشهريه أى ١٢ يوما أخرى تطرد بعدها إلى خارج الرحم اذا لم يتم اخصابها . وتبدأ بذلك الدورة الشهرية الثانية فيتكرر حدوث النزف ونزول الغشاء المخاطى الرحمى وهلم جرا »

وعلى ذلك فحياة البويضة فى الرحم قصيرة جدا لاتتجاوز كما يرى القارىء الاثنى عشر يوما وليست هذه المدة كلها على قصرها مدة حياة ونشاط للبويضة إذ انها تفقد نشاطها وحياتها وقبولها للاخصاب قبل نزولها باسبوع

ويتضح إذن أن المدة التى تكون فيها البويضة قابلة للاخصاب أي محتفظة بحياتها ونشاطها لاتتعدى خمسة أيام . وبمراجعة التحديدات السابقة الذكر نرى أن الخمسة الايام هذه تقع فى الدورة الشهرية بحيث تبدأ قبل انتهاء الدورة الخارجية أي نزول الغشاء المخاطى الرحمى باثنى عشر يوما وتنتهى قبل بدأ الدورة الخارجية التالية باسبوع

* * *

وقد ظلت الظواهر السابقة بدون تفسير ممكن إلى أن ظهرت نظرية التطور . فكان العلماء يكتفون من قبل بملاحظة انتظامها واعتباره كأمر واقع وكبقية الظواهر الحيوية الأخرى التى لم يكن سبيل إلى تفسيرها

وقد فسر لنا تقدم الأبحاث الغرض من هذه الدورة والغاية منها كما أوضح لنا الفترات المختلفة والأدوار المتعاقبة التى تحدث فى اثنائها. ولكن بقى أن تفسر السر فى انتظامها ولماذا يتعاقب حدوثها كل شهر قمرى . ومن الواقع نحن لانستطيع إلى الآن أن نقدم تفسيرا قاطعا لذلك وكل مانملكه هو تعليل وجيه على جانب كبير من الصحة ولكن ليس من سبيل إلى الجزم به فهو على ذلك تعليل اجتهادى لا أكثر ولا أقل

وقد هيأت نظرية التطور التعليل المتقدم . فحسب هذه النظرية تسلسل الأنسان عن نوع من القردة العليا والمفروض أن هذه القردة كانت تسكن الغابات وكانت ظروف الحياة والوجود فى تلك البيئة لاتسمح باختلاط الجنسين إلا فى الليالى المقمرة حيث كان يتم ذلك على صورة الغزو « وقد اوضح ويلز ذلك بجلاء فى قصته العصر الحجرى فى كتابه قصص الزمان والمكان » ولما كان القصد من عملية الدورة الشهرية هو اعداد الرحم وبالتالى الانثى لعملية تجديد النسل كان لابد لحدوث هذه العملية قبل كل ميعاد تتوقع فيه الانثى الاختلاط بالذكر . ولما كان الاختلاط يحدث فى فترات منتظمة معينة بحكم الضرورة انتظمت عملية الدورة الشهرية وتقيدت بذلك . ولابد أن الحالة قد ظلت على هذا المنوال مدة طويلة بحيث نشأ عن ذلك شىء يشبه التعود أولا ثم انتهى به الأمر ان أصبح طبيعة . وهكذا تمكنت الدورة الشهرية وتغلغل انتظامها فى الطبيعة البشرية حتى فقدت طابعها الأول كعادة تتحكم فيها الظروف واصبحت عملية حتمية يجب أن تتقيد بها

ويلاحظ القارىء أن التفسير الذى نقدمه للدورة الشهرية ليس كما سبق أن ذكرنا تفسيرا قاطعا انما هو الواقع تفسير اجتهادى ليس من الممكن اثباته بالبرهان القاطع فمن ادرانا أن الأمر كان على نحو ماصورنا فى تلك العصور الحجرية الأولى . ومن منا يستطيع أن يؤكد أن الحال كان على نحو ما أوردنا بين قبائل الأنسان البدائى ولو أننا نرجح ذلك ترجيحا كبيرا

ومهما يكن من أمر التفسير المتقدم فانه يضع ايدينا على حقيقة جوهرية جديرة بالتأمل وهى أن الأساس فى كل الدورة الشهرية هو محاولة ضمان حفظ النوع وتوالده وذلك بواسطة تحقيق عملية الاخصاب ونحن اذ نؤكد ذلك لانأتى بجديد فقد سبق أن أشرنا إلى أن النتيجة المباشرة للدورة الشهرية هى اعداد الرحم لاستقبال بويضة جديدة حية بعد طرد البويضة المائتة التى فيه . ومن البديهى

أن الغاية من ذلك هو تسهيل عملية الاخصاب

• • •

ويقودنا ذكر الاخصاب إلى الكلام عن كيفية حدوثه والشروط الاساسية لذلك . وهذا الكلام وإن كان خارجا عن موضوع الدورة الشهرية نفسها فانه شديد الاتصال بها وثيق العلاقة على النحو الذى بيناه

والاخصاب هو الخطوة التى تلى التلقيح . وعملية التلقيح هذه تنحصر فى وضع الحيوانات المنوية بحيث تستطيع الوصول إلى البويضة . وتستطيع ذلك بفضل حركتها الذاتية فوق انزلاقها فى السائل البروستاتى الذى يلازمها ويقذف معها

أما عملية الاخصاب وتلى عملية التلقيح فتنحصر فى اندماج احد الحيوانات المنوية بالبويضة . وهذه هى الخطوة الأولى فى تكوين الجنين الذى يتحول بعد المرور فى الأطوار المختلفة التى مربها الجنس البشرى إلى مخلوق على صورة والديه

وليس الاخصاب ممكنا مهما تعددت محاولاتنا أو مهما تعمد المتعمدون تغير الحقائق أو مهما خدعتنا الظواهر بغير اندماج حيوان منوى حى ببويضة حيه . ويحدث هذا الاندماج باقتراب الحيوان المنوى من البويضة أولا مدفوعا بحركته الذاتية ثم اختراقه الغشاء الخارجى المحيط بالبويضه ودخول رأسه بها ثم اندماج هذه الرأس اندماجا كليا بالبويضه بحيث لايكونان إلا كائنا واحدا ويسهل عملية الاندماج هذه مابين الحيوان المنوى والبويضة من تجاوب طبيعى فهما أشبه شيء بقطبي مغناطيس من حيث تجاذبهما إلى بعض

وبتمام عملية الاخصاب هذه يتعين تكوين الجنين وما ينشأ عن ذلك من عوارض مختلفة تطلق على مجموعها اسم الحمل . وبتحقيق عملية الحمل تتحقق الغاية من الدورة الشهرية . ويلاحظ عندئذ اختفاؤها إلى أن يتم تكوين الجنين وولادته أى خروجه من الرحم وهذا الاختفاء الوقتى أمر طبيعى جدا فان حدوث الدورة الشهرية بعد اخصاب البويضه يترتب عليه طرد هذه البويضة المخصبة إلى خارج الرحم مما يسبب موت الجنين الأمر الذى يعرف بالاجهاض . وتكون إذن عملية الدورة الشهرية عملية لاطائل تحتها كساقية جعا دائمة الدوران

• • •

ويقودنا ماتقدم من الحقائق إلى التأمل قليلا فيما يمكن أن يكون لها من تطبيق وفى الأوجه المختلفة لاستعمالها . وأحب أن يتأكد القارىء قبل الخوض فى غمار هذا الموضوع انى لاأعرض عليه رأيا فى جواز تحديد النسل والتحكم فيه أو عدمه انما استعرض أمامه حقائق علمية ثم مايمكن أن

يكون لها من تطبيق وهو حر بعد ذلك فى استعمال هذه التطبيقات أو اهمالها فالقصد الأساسى هو معرفتها والاحاطة بها علما

أول تطبيق عملى لما تقدم من الحقائق يتعلق بالمعلومات التى قدمتها لنا الأبحاث الحديثة عن العادة الشهريه نفسها وأدوارها . ومن هذه الابحاث نرى أن البويضه لاتكون مستعدة للاخصاب إلا فى فترة معينة وعلى ذلك يتضح أنه إذا كنا نريد تحقيق هذه العملية فعلينا اذن أن نراعى هذا القيد وأن نتحين أنسب الفرص لذلك . ولايضاح ماتقدم نقول أنه من حيث أن عملية الاخصاب لاتحدث إلا باتصال الحيوانات المنوية الحية بالبويضة الحية فالواجب علينا إذا كنا نطمع فى ذلك أن نحقق هذا الشرط. أما من حيث ضمان حياة وتمام نمو الحيوانات المنوية فهذا أمر لانستطيع التحكم فيه بأنفسنا ولكن القاعدة العامة بين الناس هى أن الحيوانات المنوية التى تقذف وقت التلقيح هى حيوانات منوية حية تامة النمو إلا إذا كان هناك من الدواعى المرضية مايغير ذلك وهذا مالا يتسع المجال لبحثه الآن . فاذا سلمنا أن الحيوان المنوى المقذوف حى كامل النمو . وجب علينا أن نتأكد أيضاً أن البويضة فى حالة مماثلة حتى يمكن أن تحدث عملية الاخصاب . وتوضح الحقائق التى ذكرناها فيما تقدم عن الدورة الشهرية هذه المسألة بجلاء فالبويضة لاتكون موجودة فى الرحم فى الستة عشر يوما التى تتبع الدورة الخارجية كما أنها تموت قبل حدوث الدورة الخارجية الثانية باسبوع . أي أن مدة حياتها فى الرحم حيث يمكن إخصابها محصورة بين اليوم السادس عشر بعد الدورة الخارجية واليوم الواحد والعشرين بعد نفس الدورة الخارجية . وعلى ذلك يجب إذا كنا نريد تحقيق عملية الاخصاب أن نباشر عملية التلقيح بحيوانات منوية حية تامة فى هذه الفترة أي مابين اليوم السادس عشر واليوم الواحد والعشرين بعد الدورة الخارجية السابقة . ولكننا نضيف إلى ماتقدم ملاحظة لها أهميتها وهى أن الحيوانات المنوية الصحيحة تستطيع أن تعيش فى داخل الرحم مدة أقصاها خمسة أيام وهى على ذلك تستطيع الانتظار فى داخل الرحم طول هذه المدة حتى تنزل البويضه إلى الرحم مما يجعل التلقيح مخصباً فى مدة أطول أى فى الفترة بين اليوم الحادى عشر واليوم الواحد والعشرين التاليتين للدورة الخارجية السابقة .

نستخلص مما تقدم اننا إذا كنا نرغب فى النسل فعلينا أن نسعى إلى تحقيق عملية الاخصاب بمراعاة القيود المتقدمة وتنحصر فى أن التلقيح لايكون مخصباً إلا فى فترة معينة علينا أن نتقيد بها فوق مايجب أن نتقيد به من القيود الاخرى لضمان حياة وتمام نمو كل البويضة والحيوانات المنوية وأهم هذه الضمانات وإن كان من بينها مالا سبيل لنا إلى التحكم فيه هو الا نعمد إلى قتل أى الطرفين باستعمال المواد الكيماوية كالمطهرات مثلا وأشهرها أملاح الزئبق . كما يجب أن نتجنب منع اتصالهما

بوضع الحواجز والموانع فى طريقها مما هو شائع من أدوات الكوتشوك وغيرها . وهناك احتياط آخر ويتعلق بالحيوانات المنوية فقد لوحظ أنها تفقد كثيراً من نشاطها فى الحركة واتجاه جذبها نحو البويضة إذا تعاطى الانسان من الكحول قدراً كافياً إذ تظهر الحيوانات المنوية عندئذ كأنها سكرى هى الأخرى .

فيما تقدم مجمل التطبيقات التى نستطيع تحقيقها فيما لو أردنا النسل وهى جديرة بأن تثبت مالها من قيمة

ولكن هب أيها القاريء اننى من حزب اليسار وأن لى فى الحياة رأياً خاصاً . هب مثلا اننى لأمر ما لا أريد نسلا ولا أطمع فى ذرية صالحة أو غير صالحة أو أن لدى منها الكفاية وما يزيد .

أو هب اننى متطير على نحو أبى العلاء المعرى زاهد فى هذه الحياة الدنيا راغب عن بهجتها شقى أتمنى على الله أن لا يزيد عدد الأشقياء واحداً . بل هب اننى على أسوأ الفروض رجل شهوانى — لا قدر الله — أريد الحب للحب فقط فهل يستطيع الطب أن يسعفنى بعلاج لدائى ؟.

انبه القاريء مرة أخرى اننى لا أتعرض الآن لسكوتى هذا من الناحية الدينية أو الاخلاقية أو الاجتماعيه بل ولا حتى من الناحية الفلسفية انما أعالج الموضوع من الوجهة الثقافية فقط لوجه العلم ولوجه الثقافة الفنية لاغير

وأقول اننى إذا كنت من هذه الفئة فالطب يستطيع أسعافى اسعافا محققاً وله إلى ذلك أكثر من سبيل سنستعرضها فيما يلى :

أول مايتبادر إلى الذهن الخالى هو أن نترك الحبل على غاربه حتى إذا ماتحقق الاخصاب لجأنا الى عملية الاجهاض وهذه جناية أثيمة يعاقب القانون مرتكبيها أشد العقوبات حتى ولو كانوا من الأطباء إذ لا يجب أن يلجأ اليها إلا عند الضرورة القصوي لانقاذ حياة الأم مثلا. وفوق ماتقدم فعملية الاجهاض عملية لاتخلو من خطر محقق على حياة الأم مما قد يؤدى إلى موتها .

والاسعاف الذى يلى الاجهاض فى التبادر الى الذهن هو الامتناع بتاتاً ومقاطعة الحب كلية . وهذا تقشف لامبرر له فى أغلب الأحيان فوق أنه جدير بأن يسبب من المشاكل الاجتماعية والاخلاقية أكبرها ويجدر بنا أن نلاحظ الحقيقة الآتية وهى أن الطبيعة قد ميزت الانسان وما يقرب منه من الحيوانات من فضائل القدرة التناسلية فجعلت الحب بينهم حراً لا تقيده قيود الزمن أو التناسل كما فى الحيوانات الاخري . فالجاموس والبقر مثلا لايلجأ إلى الحب إلا فى فترة معينة من الزمن يكون الاخصاب فيها محققاً أما فى غير هذه الفترة فالحب مستحيل لأن غايته مقصورة على التناسل . ولكن الحب ممكن بالنسبة للنوع البشرى فى أى وقت وأى ظرف والغاية منه

ليست مقصورة على التناسل ولكنها تتعداها إلى غيرها من الغايات مما لا نريد الخوض فيه الآن . وهذه الحقيقة جديرة بالتأمل والتمعن لأن اهمالها كثيراً مايسبب لنا من المصاعب الشيء الكثير وان كنا لانتبين ذلك فى أغلب الأحيان .

أما العلاج الثالث فهو قتل أي الطرفين . إما الحيوانات المنوية وإما البويضات ووسائل ذلك متعددة منها التعقيم الجراحى أو التعقيم الطبي ولهذه العملية أخطار لاسبيل إلى إنكارها لان الغدد التناسلية تشترك فى عملية الدفاع عن الجسم ضد الميكروبات والحالات المرضية اشتراكا فعلياً وهى تساهم فى هذه العملية بسهم وافر ومن الجور إذن الالتجاء اليها رجاء ضمان كالذى نشده . ولكن للقتل وسيلة أخرى ليست عامة كالتعقيم ولكنها وقتية وهى استعمال المطهرات وذلك بأن نجعلها تعترض سير أى الطرفين أو نجعلها تصل اليه قبل وصول الطرف الآخر إليه . وأشهر هذه المطهرات هو مرهم الكالوميل وهو مرهم مستحضر من أملاح الزئبق ويستعمل كوقاية من الأمراض السرية فاذا وضع جزء من هذا المرهم فى طريق الحيوانات المنوية مثلا قتلتها باختلاطه بها قبل وصولها إلى البويضة . ومن الممكن إستعماله لقتل البويضة بدل الحيوانات المنوية على أن المبالغة فى استعمال هذه المطهرات قد يؤدي إلى ضرر محقق إذا أسيء استعمالها .

بقى بعد ذلك طريق آخر وهو منع الحيوانات المنوية من الوصول إلى البويضة ولهذا المنع طريقتان الأولى وهى أن نتحين الفرص التى لاتكون البويضة الحية فيها موجودة بالرحم مع مراعاة المدة التى يستطيع أن يعيشها الحيوان المنوى داخل الرحم وأقصاها خمسة أيام كما قدمنا فنجد أن هذه الفترة التى لايمكن أن يحدث فيها الاخصاب تحدث مرتين المرة الأولى فى الفترة التالية للدورة الخارجية مباشرة وتستمر أحد عشر يوماً تكون البويضة فيها لم تصل بعد إلى الرحم والمرة الثانية فى الفترة التى تسبق الدورة الخارجية مباشرة وتستمر أسبوعا وتكون البويضة فى أثنائها فى داخل الرحم ولكنها قد ماتت وفقدت قابليتها للاخصاب .

أما الطريقة الثانية للحيلولة بين الحيوان المنوى والبويضة فتتلخص فى وضع حاجز مادي يمنع إتصالهما المباشر وذلك باستعمال أدوات المطاط مثلا أو وضع قطعة من القطن المعقم المشرب بمطهر خفيف على مقربة من عنق الرحم هذا إذا أمكن تحملها .

ولا شك أن أفضل الطرق للتحكم فى عملية الاخصاب وبالتالى التحكم فى النسل هما الطريقتين الاخيرتين وعلى الأخص طريقة تحيين فرصة غياب البويضة عن الرحم أو فرصة عدم قبولها للاخصاب لاسيما وأن هذه الفترات تناظر فترات نشاط جنسى واضح

الجنرال يعقوب واستقلال مصر

بقلم لجنة التاريخ القبطى

نبغ من المصريين فى القرن الثامن عشر رجل قبطى من سلالة الشعب المصري القديم استحق أن يخصص له التاريخ صفحة مجيدة من صفحاته وهو يعقوب يوحنا وقد لقب فيما بعد « بالمعلم» فصار « المعلم يعقوب » ثم « الجنرال يعقوب »

وبعدت شهرة المعلم يعقوب فى عهد احتلال الفرنسويين للديار المصرية (١٧٩٨ — ١٨٠١) فتحدث عنه مؤرخو الفرنسيين وورد ذكره فى المكاتبات الرسمية والوثائق المحفوظة فى وزارتى الحربية والخارجية بباريس وفى هاتين الوزارتين كل مايتعلق بالمعارك الحربية وأسماء القوادوالضباط والجنود . فهما مرجع صحيح الرواية

ومما يجعل سيرة المعلم يعقوب جديرة بالدرس أنه أول قبطى ألف جيشاً قبطياً بقيادته وكان رفيقاً للقائد « ديسيه » أحد قواد حملة نابوليون وشريكا له فى حملة الصعيد ، وهوكذلك أول رجل من غير الفرنسويين منحته حكومة الجمهورية الفرنسوية رتبة قائد.

يقول المؤرخ نقولا الترك وكان شاهد عيان فى تلك الحملة : « كان عند الجنرال ديسيه من الأقباط المشهورين يعقوب الصعيدى وهو رجل قوى الشكيمة مشهور بالفروسية والهمة العالية وهو الذى كان فى خدمة سليمان بك فلما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده قدمه إلى نابوليون وأطرى اخلاصه فقربه هذا اليه وأعجب ببسالته مما دعى يعقوب إلى تأليف فيلقه »

وأهم من هذا كله أنه أول مصرى وضع مشروعا لاستقلال مصر عن الدولة العلية وعن حكم المماليك إذ أرادها بلاداً حرة خالصة لأهلها ولكن المنية لم تمهله حتى ينال موافقة الدول على هذا الأستقلال

وقد عثر فى السنوات الأخيرة فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على الوثائق التى تضمنت مشروع الجنرال فنشرها المسيو جورج دوان فى مقدمة كتابه « مصر المستقله » وقد طبعت باللغة الفرنسوية فى سنة ١٩٢٤ ثم نشرها الأستاذان توفيق اسكاروس وميخائيل بشاره داود فى مجلة مصر الحديثة . وفى سنة ١٩٣٢ نقلها الأستاذ شفيق غربال فى مؤلفه باللغة العربية « الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس »

وقد نوهوا جميعاً بفضل الجنرال وأذاعوا للملأ عمله التاريخى ولهذا رأت لجنة التاريخ القبطى أن تجمع ماتفرق مما كتب عن الجنرال يعقوب وتستخلص زبدته وتزفها إلى القراء مثلا أعلى لحب الوطن والتفكير فى خلاصه وتحريره يحتذيه أبناء الوطن ويجدون فيه باعثاً على الفخار والشعور بالكرامة الوطنية . فان تاريخ الأمم التى فازت باستقلالها ليس فى الواقع سوى تاريخ فئة من أبنائها الصميمين البارزين كانوا أمثلة فى الشجاعة والاخلاص لبلادهم وهم الذين جاهدوا فى سبيلها وبنوا صرح مجدها ونسجوا ثوب عزها

الرأى الذى أجمع عليه المؤرخون هو أن يعقوب ولد فى مدينة ملوى من أعمال مديرية أسيوط فى سنة ١٧٤٥ ميلادية من أبوين قبطيين وهما يوحنا ومريم غزال ابنة توفيق غزال

وهذا الرأى يعززه أن اخوته وأخواته ولدوا فى ملوى وفيها ربى هو وتعلم العلوم الأولية وفيها تزوج امرأته الأولى واقتنى منزلا . ولما اجتازها الجيش الفرنسوى وهو يطارد مراد بك أراد يعقوب أن يعرج عليها لكى يحتفل فيها باكرام القائد ديسيه إلا أن هذا كان همه تعقب مراد بك فلم يشأ التوانى فى المسير

لم يكن بمصر فى ذلك العصر من معاهد التعليم سوى الكتاتيب القبطية يتلقى فيها أبناء القبط القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب الابتدائى ويستظهرون المزامير والألحان الكنسية . فأدخل يعقوب كتاب بلدته حيث قضى سنيه الأولى كما يقضيها أترابه دون أن يمتاز عليهم أو على سائر اخوته بشىء ما

ولما كبر يعقوب لم يكتف بما تلقنه من المعارف الاولية فى الكتاب بل واصل الاجتهاد فى الدرس لذاته فأحرز قسطاً وافراً من اللغة العربية وأجاد كتابة الخط ووعى الأصول الحسابية . وكان القبط مشهورين باتقانها . والذى دفعه إلى ذلك ما طبع عليه من جد وطموح للارتقاء وبقوة عزيمته استطاع أن يحرز جانباً من الثقافة ازدادت به معلوماته فساعده ذلك على بلوغ المرتبة الرفيعة التى بلغها فيما بعد

* * *

وأتم يعقوب العقد الثانى من عمره فألحقه والده كاتباً عند قريب له من المشتغلين بجباية أموال أحد المماليك الذين كانوا يتقاسمون حكم البلاد فى ذلك العصر . وهنا بدأت مواهبه تظهر واكتسب كثيراً من المعلومات الادارية والحسابية ولما طرد على بك الكبير محمد باشا الحاكم العثمانى من القاهرة وولى حكم البلاد وقبض على زمام السلطة العليا فيها قرب اليه المماليك الآخرين بالانعام عليهم برتبة البكوية . واتفق فى أثناء ذلك أن التحق يعقوب بخدمة أحد هؤلاء وهو سليمان بك أغا الانكشايةر

وكان واسع الثروة كثير الممتلكات ولم يمض طويل وقت حتى آنس سليمان بك فى يعقوب الامانة والمقدرة فأولاه ثقته وأقامه مديراً عاماً لماليته

وقد كانت هذه الادارة تقتضى جباية الضرائب والرسوم الجمركية وايجارات الاراضى الزراعية. ويزيد تعقد هذه المهام اختلاف العملة وتعددها وتغير قيمتها من حين إلى حين فأكسبته خبرة واسعة مالية وادارية أعانته على تأدية المهام التى عهدت اليه فيها الحملة الفرنسوية لما قدمت الى مصر وإلى جانب ما تقدم أحرز يعقوب صفات عسكرية ممتازة من مرافقته للماليك وكانوا ذوي بأس ومعروفين بالفروسية والشجاعة وميالين إلى القتال وقلما كانت تنقطع حروبهم ومناوشاتهم. فمنهم تعلم يعقوب ركوب الخيل وتدرب على الطعن بالسيف

وكانت مؤهلات يعقوب وكفاءته المالية والادارية على النحو الذى كان سائداً فى زمانه سبيلا إلى ثروة كبيرة جمعها فأصبح ذا ممتلكات وأموال وخدم وحشم ومستخدمين وأتباع فأضيف إلى اسمه لقب « المعلم » وهو لقب كان يعطى فى مصر فى القرون الوسطى للدلالة على الشرف والزعامة ويطلق على كل من يبرز فى علم أو صناعة أو يحرز أموالا وضياعاً

ولما كان يعقوب فى الخامسة والعشرين من العمر تزوج بامرأته الاولى « مختاره الطويل » وهى ابنة عمه وكان عمه رجلا ثريا ببلدة ملوى له تجارة واسعة وممتلكات كثيرة وقد رزق يعقوب من امرأته هذه ولداً مات طفلا وبعد قليل لحقت به أمه بطاعون ذهبت ضحيته

وبعد انقضاء اثنتى عشرة سنة من وفاة زوجته الأولى تزوج بامرأته الثانية وكانت فتاة سورية من حلب تدعى مريم نعمة الله البابوتجى. ولما قدم القاهرة فى سنة ١٧٩٢ بارك البطريرك الانبا يؤانس الثامن عشر - والمائة والسابع فى عدد البطاركة - هذا الزواج ولم يكن قد كتب به عقد جرياً على العادة المتبعة إلى ذلك الحين إذ كانت عقود الزواج شفوية بايجاب وقبول. إلا أن هذا الزواج سجل رسمياً فى فرنسا أمام قاضى المصالحات فى سنة ١٨١٨ بشهادة شقيقتى يعقوب وشهود آخرين من أصدقاء الأسرة لمناسبة إثبات وفاة يعقوب واحصاء تركته وورثته ومنهم زوجته الثانية هذه

وأتاح مجيء الفرنسويين الى أرض الفراعنة فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى للمعلم يعقوب الفرصة لاظهار مواهبه فأصبح عظيما من عظماء التاريخ وذاعت شهرته فى الديار المصرية وفى الاقطار المجاورة لها. فان الشريف حسن شريف مكة لقبه « بعظيم حملة ديسية فى الوجه القبلى » لما بلغه أنه أرسل جيشاً لتأييد مراد بك وطلب أن يستعد للقتال. كما أن المماليك طلبوا وساطته فى الصلح بينهم وبين ديسيه

هذا الرجل المقدام والفارس الشجاع ألقيت على عاتقه مهام لا يستطيع غيره النهوض بأعبائها

ولكنه أداها على خير مايرام وبأفضل أسلوب ابتغاء الوصول الى تحرير بلاده من نير المماليك والترك

لما فتح بونابرت القاهرة واستقر به المقام قدم اليه جرجس الجوهرى - وكان عميد القبط إذ ذاك - أعيان أبناء طائفته وبينهم المعلم يعقوب . فعين منهم المعلمين سدرة الشماع وبانوب الجيزاوى وجرجس صرايعون وملطى ساروفيم ويوحنا الصولى رؤساء للمالية فى بعض المديريات

أما يعقوب فقد احتفظ به لما هو أهم من ذلك . فانه لما لجأ المماليك الى الصعيد فكر بونابرت فى القضاء عليهم فجهز حملة بقيادة الجنرال ديسيه ولما كانت هذه الحملة بحاجة الى رجل أمين يجمع فى شخصه الصفات العسكرية والادارية وله خبرة تامة بالبلاد التى تجتازها الحملة والمام تام بكيفية جمع ما تحتاج اليه من مؤن وقع اختياره على المعلم يعقوب فعينه مديراً عاماً للحملة

وكان المعلم يعقوب عند حسن ظن بونابرت به فجهز للحملة المؤن والذخائر وأمن لها طرق المواصلات ورتب حركاتها وعين مواضع اقامتها ونظم الشؤون المالية والادارية على الوجه الاكمل وساعده على ذلك ما كان له فى نفوس أهل البلاد من منزلة رفيعة بدليل قول الضابط بليار « ان الشعب كان ينظر الى يعقوب كأنه السلطان الاعظم والقائد العام الذى احتل الصعيد »

وقد نهض يعقوب وحده باعباء تموين الحملة والجيوش المتفرقة على طول النيل وليس ذلك فقط بل نهض أيضا بادارة مالية الوجه القبلى كله من توزيع الضرائب وجبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة التى كان يصدرها الجنرال ديسيه والأنظمة القديمة المألوفة فى البلاد

هذه المقدرة الفائقة جعلت للمعلم يعقوب كلمة مسموعة فى الشؤون الادارية والمالية . ومن أدلة ذلك أنه لما كان الجنرال بليار يتولى الاشراف على جباية الضرائب تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن تسديدها فقبض على بعض من مشايخها رهينة عنده واتفق ان المعلم يعقوب وصل إلى بنى سويف آتيا من مديرية الفيوم بصحبة الجنرال ديسيه بعد اخضاعها وعلم بالأمر فاحتج بشدة على تصرف بليار ونصح باستعمال الأناة فى الجباية والكف عن ارهاق الاهلين واخلاء سبيل المشايخ المرتهنين . فأقره الفرنسويون وفى مقدمتهم ديسيه على رأيه وعملوا بنصيحته

وكان المعلم يعقوب عماد حملة الصعيد ودعامتها وقد ثبت ذلك مما حدث بعد عودته إلى القاهرة مع القائد ديسيه فان بليار الذى حل محل ديسيه فى قيادة الحملة كتب اليه باعادة المعلم يعقوب سريعا لأن الحملة بعد سفره لاقت صعابا جمة فى تدبير قوتها اليومى

ولا شك فى أن الأيام الكثيرة التى قضاها القائد ديسيه مع المعلم يعقوب إلى ذلك الحين هى التى يسرت له الوقوف على ما كان ليعقوب من مواهب فوطن عزمه على وضع خطة لحملة تسير حتى النوبة لاتمام اخضاع الوجه القبلى واحتلاله . ونفذت هذه الخطة وأتمت الحملة مهمتها فبددت شمل

المماليك وعاد ديسيه إلى أسيوط واتخذها مركزا عاماً للقيادة ومعه المعلم يعقوب وكبار ضباطه

وحدث أن بونابرت غادر البلاد المصرية الي فرنسا بدعوة من حكومة الديركتوار فسلم قيادة الجيش الى الجنرال كليبر وهذا تولى تنظيم المصالح اداريا وماليـاً وحينئذ ذكر ديسيه المعلم يعقوب ووجوب الانتفاع بخبرته ومقدرته فأوحى بذلك إلى الجنرال كليبر فطلب منه الاشتراك معه فى هذا العمل ومعاونته فى تنفيذ مشروعاته فقبل ذلك ونهض بما عهد اليه فيه وجمع حوله مساعدين أحسن اختيارهم وجعل مكتبه فى منزل البارودي وأدار الامور إدارة حسنة بما خول له من سلطة واسعة وكانت اختصاصاته تشبه اختصاصات وزير المالية فى أيامنا هذه

وبعد انتصـار كليبر فى معركة هليوبوليس « عين شمس » على الترك فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ واخماد ثورة القاهرة التى نشبت وقتئذ دخل الجنرال كليبر القاهرة ظافراً وفرض غرامة مقدارها ١٢ مليونا من الفرنكات على سكانها وعهد الي المعلم يعقوب فى جبايتها وخوله السلطة المطلقة لذلك فاستعمل الحكمة فى تحصيلها دون ارهاق الاهلين فى ذلك

وذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى تاريخه أنه عهد الى يعقوب غير ماتقدم فى أعمال أخرى ادارية ومالية فكان يؤديها بسلطان مطلق

ولما أتمت حملة الوجه القبلى مهمتها باخضاع الصعيد بأكمله الى اصوان التمس ديسيه وهوعائد الى أسيوط وسيلة يتصل بها بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل اتصالامستمراً وسريعا للمحافظة على الامن وكاشف المعلم يعقوب بذلك فوعد بالتفكير فى الامر ولما وصل الى اسنا خطر له أن ينظم فرقة من السعاة الهجانة تتولى البريد وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة السريعة فى ذلك الوقت. وفى خلال أسبوع قضاه فى إسنا دبر الرجال والهجن اللازمة ووزع الفرقة على المسافات فأعجب الجنرال ديسيه بالفكرة لانه جعله على اتصال دائم بجنوده فى الشمال والجنوب فكان يرسل الجرحى إلى القاهرة ويتزود منها بالميرة والذخيرة

***

فى سنة ١٧٨٦ أى قبل مجىء نابليون بمنتين وقبل حملة الصعيد بنحو اثنتى عشرة سنة كان يعقوب يشترك مع المماليك فى حروبهم وغزواتهم كما تقدمت الاشارة إلى ذلك ومما يذكر عنه أنه رافق مراد بك فى محاربته للترك وشهد الموقعة التى دارت رحاها بالقرب من المنشية من أعمـال مديرية أسيوط وكان له نصيب من النصر الذي أحرزه مراد بك

ومما يدل على أن يعقوب تدرب على فهم الاصول والقواعد العسكرية انه عندما وصلت جنود حملة الصعيد إلى المنشية حيث دارت المعركة المشار اليهـا أخذ يصف للجنرال ديسيه وأركان حربه كيف انكسر الترك . ويقول فيفان دينون وكان بين المستمعين للقصة أن يعقوب وان لم يتكلم عن

نفسه فى الوصف الدقيق للموقعة فهم الجميع أنه كانت له يد فى هذه الموقعة وأثنوا عليه

ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسويين أنه كان ذات يوم سائراً فى طليعة الجيش الفرنسوى الذى يتجسس مكان العدو وكان ممتطيا جواداً مع الفرسان وقد علق فى رقبته على الطريقة العربية سيفاً مرصعاً ووضع أمامه على السرج بندقية وفى منطقته غدارتين واستمرت الطليعة سائرة إلى أن غابت عن أنظار الجيش وبلغت عين القوصية عند بلدة العتامنة من أعمال مديرية أسيوط وهناك وجدت الطليعة نفسها بغتة أمام جمع من الاعداء . ففى هذا الظرف الدقيق لم يفقد يعقوب رباطة جأشه بل تقدم وانتضى سيفه وفعل أفراد حاشيته مثله وأخذوا والخطر محدق بهم يقاتلون عدوا يبلغ عشرة أمثالهم وما فتىء يعقوب يقاوم العدو ببسالة ويصمد له إلى أن وصل ديسيه إلى العتامنة على أثر علمه بأن خطراً يتهدد مقدمة جيشه فما رآه العدو حتى ولى الادبار ونجا يعقوب من الخطر فأسرع ديسيه اليه وهنأه ببسالته وأهدى اليه سيفا تذكاريا

وحسب يعقوب حسابا للطوارىء بعد ماشعر أن مصر محرومة من جيش وطنى يمكن الاعتماد عليه فى الملمات ففكر فى تأليف فرقة قبطية وطلب ذلك من الفرنسويين فرخصوا له بتأليفها فجمعها من شبان من أهل الصعيد عملوا فى الجيش الفرنسوى صناعا وعمالا وكانوا نحو ألفين ووكل أمر تدريبهم على الحركات العسكرية إلى ضباط انتقاهم كليبر لهذا الغرض فأظهروا براعة فى تعلم هذه الفنون

وضم يعقوب إلى الالفى شاب شبانا آخرين فتألف منهم الفيلق القبطى ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعد ذلك إلى قراهم ولم يبق منهم سوى ٧٠٠ او ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والميرة من ماله الخاص . ولما توفى تولى القيادة بعده الكولونيل غبريال سيداروس ابن أخيه كما سيأتى بيانه وقد ترك لنا التاريخ شهادتين من رجال الحملة الفرنسوية تثبتان تأليف هذا الفيلق وما بذله يعقوب من المال فى هذا السبيل

* * *

فى أثناء معركة هليوبوليس « عين شمس » وهى التى دارت رحاها بين الجيش التركى بقيادة ناصف باشا والجيش الفرنسوى بقيادة كليبر العامة فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ دخل إلى القاهرة خلسة كثير من أفراد الجيش التركى وأخذوا يحرضون الأهلين على رفع راية العصيان واعلان الثورة فى وجه الفرنسويين فأثمرت دعوتهم ونشبت الثورة فعلا ودامت من ٢٧ مارس إلى ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠ وكانت نار هذه الثورة توشك أن تلفح القبط بشواظها لولا أن يعقوب كان غنيا وشجاعاً فأحسن الدفاع عنهم وأنقذهم . إذ أظهر فى تلك الظروف العصيبة مقدرة عظيمة واستيقظت

فيه الروح الحربية فحصن منزله فى الدرب الواسع المجاور للميدان وثبت إلى النهاية أمام حصار شديد كان فيه خصمه اللدود حسن بك الجداوى واستهدف لكل خطر وهو على رأس عسكره يشجعهم بأقواله الحماسية وأعماله الباهرة

وكان حى القبط فى الأزبكية محصوراً بين القلعة التى أنشأها يعقوب بجوار الجامع الاحمر من جانب وقنطرة الدكة من جانب آخر . فهدم يعقوب بعض الدور التى فى آخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة وجعل منها حصناً ليكون الحى بين القلعة وهذا الحصن

وفى هذا الصدد قال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله صاحب تاريخ الأمة القبطية فى ص ٢٩٤ ما يأتى : —

« قيل ان بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصاري من نقطة كانت مهملة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لانقاذ من بها بطريقة لم تخطر على البال وذلك بأن أخرج من معاصره « للزيت والسيرج » ومعاصر غيره التى بجهة الجامع الأحمر جميع خول الجاموس وأوقفها أمام البوابة وحصرها بين قوتين من العسكر وأمر الجنود بأن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فتزاحمت على البوابة فزحزحت الأحجار التى وراءها وانفتحت فدخلت الجنود وقبضوا على الثائرين »

وقال أيضاً فى ص ٢٨٩ . —

« هذه القلعة بناها يعقوب بجوار الجامع الأحمر وكانت كما مر القول الحصن الشرقى لحى القبط فى أثناء ثورة القاهرة » . وذكر هذه القلعة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فقال . « وبنى له (أى يعقوب) قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير تحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً فى ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رممه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر اللازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسويه »

وقال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله فى ص٢٨٩ « انه شاهد بعينه اثار هذه القلعة قبل هدمها فى أيام المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر »

* * *

لما عين الجنرال مينو القائد العام المسيو استيف مديراً عاما لايرادات الدولة احتاج إلى خدمات المعلم يعقوب فجعله مستشاراً له . وفرضت ضرائب جديدة إلا أن الأموال التى جبيت من الأهلين لم تسد حاجة الجيش وما كان يجب انفاقه فى الوقت عينه من المال على المشروعات والأعمال العامة

فى بلاد القطر . فاضطر القائد مينو إلى أن يعقد قرضاً بمليون ونصف مليون من الفرنكات وفاوض المعلم يعقوب فى شأنه

فاتفق يعقوب مع أربعة من زملائه وهم المعلمون . جرجس الجوهرى وأنطون أبو طاقية وفاتاؤوس وملطى على أن يقدم كل منهم ٣٠٠ ألف فرنك وقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة فى دائرة اختصاصهم الاداري وأعطاهم أستيف سندات بقيمتها على الخزانة الفرنسوية

وقد تقدمت الاشارة إلى أنه فى مساء اليوم الذى كان فيه يعقوب يخاطر بحياته وهو فى طليعة جيش الجنرال ديسيه عند بلدة العتامنه قدم اليه ديسيه سيفاً فخرياً وكان ذلك عند محطة بنى سند بحضور كبار قواده وضباطه وسائر الجيش ونقشت على السيف هذه العبارة « معركة عين القوصية » اعلاناً بفضل يعقوب فى هذه الموقعة فى يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ولا يزال هذا السيف محفوظاً عند الباقين من أفراد أسرته

أهدى الجنرال بونابرت إلى يعقوب عباءة من الفرو وكانت عادة الشرقيين فى تكريم الاشخاص الممتازين اهداءهم كساوي تشريفية فجرى بونابرت على هذه العادة وكان يهدي العباآت باحتفال خاص ويعقوب هو أول من سلمه بونابرت بيده عباءة بعد جرجس الجوهرى،

ولما ألف يعقوب الفيلق القبطى سنحت للفرنسويين فرصة يظهرون فيها شكرهم له فرقاه الجنرال كليبر الى رتبة كولونل « اميرالاى » فى حفلة عسكرية فخمة أقيمت فى أوائل مايو سنة ١٨٠٠ وأمر بأن يكون له حرس شرفى يرافقه فى تنقلاته ويقف أمام داره وأعطيت له براءة هذه الرتبة فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠٠ ممهورة بامضاء القائد داماس رئيس أركان حرب جيش الشرق

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ دخل الاسطول الانجليزى مياه أبو قير وأنزل جيوشاً إلى البر فاضطر القائد مينو للرحيل عن القاهرة لدفع الخطر وأقام الجنرال بليار حاكما على القاهرة وزوده بالتعليمات التى يتبعها إذا زحف عليها الجيش التركى ثم دعا الكولونل يعقوب ورقاه إلى رتبة « جنرال » باسم الجمهورية الفرنسوية وألبسه شارتها الذهبية بنفسه حسب المتبع وذلك فى مارس سنة ١٨٠١ وسلمت اليه براءة هذه الرتبة فى ٢٦ ابريل من السنة عينها

* * *

قلنا ان يعقوب أحرز ثروة كبيرة وقد أشار فيفان دينون إلى ما كان ليعقوب من جاه وثروة فوصف احدى الحفلات التى أقامها للقائد ديسيه وضباطه وأركان حربه فقال : —

« حسب عادات البلاد كانت القاعات التى استقبلنا فيها مفروشة بالحصر والسجاد والارائك

وعلى جوانبها المساند وقدم لنا الخدم الماء المثلج الممزوج بالروائح العطرية ثم الشبكات فالقهوة . وبعد نصف ساعة مد سماط كبير وصفت على جانبيه ثلاثة أنواع أو أربعة من الكعك والفطير وصفت وسط السماط أصناف الفاكهة والمربيات والألبان وكان معظمها لذيذ الطعم وذا رائحة زكية . وقد تذوقنا منها كلها حتى أتينا على ما فى المائدة فى دقائق . وبعد ساعتين وضع على السماط الخبز وطواجن الرز الدسم الممزوج باللبن وانصاف الخراف المشوية وأرباع العجول ورؤوس هذه الانعام مسلوقة وأكثر من ستين طبقاً كدست عليها أصناف عدة أخرى من أنواع الخضر والفالوذج والفطائر والعسل النقى

« وبعد غسل الأيدى تطيبنا بماء الورد ثم قدمت الشبكات والقهوة وحل محلنا على السماط فريق من أهل البلاد ثم أتى بعدهم غيرهم وبعد ذلك جاء دور الخدم والحشم حتى أتوا على آخره »

« وفى الواقع أن يعقوب كانت له حاشية كبيرة تضم أمناء أسرار وصيارفة ورؤساء خدم وحجاباً يحملون العصى ذات الايدي الكروية من ذهب أو فضة وقواصة يفسحون الطريق أمامه وغيرهم من الخدم الذين يؤدون الخدمات الصغيرة فخادم للشبك وآخر للركاب وثالث للمباخر الخ ويتراوح عددهم بين ثمانين ومئة وكان يملك الجياد والبغال التى تحمل الأثقال والجمال والسرج المطعمة بالمعادن الثمينة وفى منزله كثير من النساء الخادمات اللاتى يقمن بالخدمات المنزلية والجوارى السودانيات والحبشيات

« ويطول بنا الكلام إذا وصفنا كل ما كان يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الأبهة والمجد أما هو فقد ازداد علماً وارتفعت منزلته وكتب له القدر أن يصعد دائماً مدارج العلا وأن يثبت للعالم أن جل مراده هو تحقيق أمنيته الوحيدة فى خدمة الوطن ورفع شأنه »

* * *

لما عاد ديسيه إلى فرنسا بعد معاهدة العريش التحق بالجيش الذى كان يحارب فى النمسا وشهد موقعة مارنجو وهى التى انتصر فيها الجيش الفرنسوي ولكنه قتل فيها فى ١٤ يونية سنة ١٨٠٠

ووصل خبر قتله إلى الجيش فى مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر فأقيمت حفلة عسكرية لذكراه فى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ شهدها المعلم يعقوب بملابسه الرسمية محاطاً بحرسه الشرفى ورجال فرقته وكان أشد جميع القواد حزناً عليه

ولما علم أن الجيوش تكتتب بالمال لاقامة تمثال لديسيه فى باريس كتب الى الجنرال مينو كتاباً باللغة الفرنسوية هذه ترجمته : —

« من يعقوب القائد العام للفيلق القبطى الى القائد العام مينو .

« فى هذا الوقت الرهيب الذى يشعر فيه كل امرىء بعظم خسارة الجمهورية بفقد ديسيه المقدام الذى بذل نفسه فى سهول مارنجو اسمحوا لى وأنا رفيق ديسيه فى أعماله بالصعيد بأن أنثر عن بعد الزهور على ضريحه وأسكب العبرات التى هى ترجمان الحزن الذى شملنى . ويعجز لسانى عن التعبير عنه وأنى لى أن أجد كلمات تكفى لاظهار مقدار التياعى

« ديسيه ! ديسيه ! انهم يقيمون لك أثراً فى فرنسا فيعقوب الذى كنت تحبه ويعزك كنفسه سيدفع ثلث نفقات ذلك الأثر بمفرده بالغة ما بلغت . وإذا بقى هذا الأثر شاهداً بأخبار الوقائع والحروب التى خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدى المماليك واخضاعه فسيعلم الخلف منه أن يعقوب القبطى حارب إلى جانبك واستحق اجلالك واعزازك وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى » . . المعلم يعقوب

وفى ٢١ مارس سنة ١٨٠١ دارت رحى معركة أبو قير بين الجيش الفرنسوى والانكليز كان النصر فيها حليف هؤلاء واتصلت قواتهم بالترك وزحفوا على القاهرة فسلمها بليار صلحاً وتم الاتفاق فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ على اخلاء الفرنسويين لمصر وكان من شروط هذا الاتفاق السماح لكل من يروم من سكان مصر بالخروج مع الجيوش الفرنسوية . وخرج فعلا كثيرون

أما الجنرال يعقوب فوطن النفس على مرافقة الجيش الفرنسوى وفى صبيحة يوم سفره دعا اليه زملاءه الاقدمين المعلمين جرجس الجوهرى وأنطون أبو طاقية وفلتاؤس وملطى وكاشفهم بعزمه على مغادرة القطر المصرى فسلموه سندات السلفة لكى يسعى فى فرنسا إلى استردادها

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ خرج بليار من القاهرة على رأس ١٣٧٣٤ من الضباط والعساكر قاصداً الاسكندرية وبينما كان فى طريقه أرسل اليه قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتاباً يرجو منه فيه بالحاح أن يقنع الجنرال يعقوب بالبقاء فى القطر المصرى للانتفاع بخدماته ولكن هذا لم يقبل

وقد خرج من القاهرة مع الفرنسويين عدد من الجنود القبط ولكن يظهر مما رواه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن بعضاً منهم عادوا إلى القاهرة فوصلوا اليها فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٠١

ونزلت جنود الحملة الفرنسوية الى البوارج الانكليزية لتقلها إلى فرنسا وآخر بارجة أبحرت من المياه المصرية هى البارجة « لاباس » وقد أقلت الجنرال بليار قائد الحملة وهيئة أركان حربه و٣٥٠ جنديا وكان معهم الجنرال يعقوب ووالدته السيدة مريم غزال وقرينته مريم نعمة وكريمته واخوه حنين وابن أخيه غبريال سيداروس وأخوه وأقرباء آخرون وعدد كبير من الخدم

ونخص بالذكر من الاقرباء الذين رافقوه الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسوي والعربى ويقال انه ابن أخي يعقوب

وكان من ركاب البارجة أيضا بعض من أعيان المصريين ومنهم لطفى غره وجورج عقيده الذى كان مديرا لجمارك القاهرة ونقولا السكاكينى وفرج خورى وشقيقه ميشيل ابنا شقيقة قرينة الجنرال يعقوب ويوسف جباره

فأبحرت هذه البارجة بهم فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١ وبقى الجنرال يعقوب واقفا على ظهرها ينظر إلى الشواطىء المصرية إلى أن غابت عن عينيه

وقد كان يعقوب يؤمل أن يصل إلى فرنسا لا ليعيش فيها ويقطع صلتـه ببلاده بل ليتقرب إلى الى حكومتها بما كان له من منزلة فى نفوس القابضين على أزمة شؤونها ثم ليتخذ من ذلك وسيلة الى خدمة وطنه بالمشروع الذى كان يشغل فكره ألا وهو استقلال مصر

ولكن الاقدار قطعت عليه أحلامه اللذيذة وسارت رياحهـا على غير ماتشتهى سفينة آماله فقضى فى البارجة يومين اثنين ثم أصيب بمرض فجائى لزم لأجله الفراش ولم يطـل مرضه سوى أربعة أيام

وفى اليوم الخامس من الرحيل أدرك الجميع أن حالته تزداد خطورة كما شعر هو بدنو أجله فقابل الموت ببسالة وبقى متنبه العقل إلى آخر لحظة فأوصى بكريمته منه وودع والدته وأقاربه وطلب أن يرى الجنرال بلييار ليكلمه فأسرع اليه ولما رآه وقف منتصبا ولكن قواه خارت فسقط على سريره فانحنى بلييار ليعلم مايريد الافضـاء به اليه فكانت آخر كلمة خرجت من بين شفتيه هى أن توضع جثته بجانب ديسيه فى مقبرة واحدة . وأسلم الروح وكانت الساعـة السادسة والنصف من صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١

ولما وصل نبأ وفاته إلى قومندان البارجة سجل فى يوميتهـا وفاته والموضع الذي كانت فيـه البارجة وقت الوفاة « وهذه كانت الطريقـة للاشتراك فى الحزن » ولقد دون فى اليوميـة أن البارجة كانت فى لحظة وفاة الجنرال يعقوب فى درجة العرض الشمالى ٤١ر٣٥ ودرجة الطول شرقى جرينويتش ٢٩

وجرت العادة بأن الركاب الذين تفاجئهم منيتهم فى عرض البحـار حينما تكون السفن بعيدة عن الموانىء تلقى جثثهم فى البحر ولـكن نظراً الى رفعة مقام الجنرال يعقوب لم تتبع هذه القاعدة فى أمر جثته ووجدوا وسيلة لحفظها من الفساد وهى غمرها فى دن من الخمر الى أن تصل البارجة الى ميناء مرسيليا لتدفن فيها . وقد لزم للسفينة نحو شهر من الزمن لتقطع المسافة من المكان الذي كانت

فيه عند الوفاة الى مرسيليا إذ انها لم تصل اليها إلا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١

وبعد خمسة أيام سمح بنقل جثمان يعقوب من السفينة الى المحجر الصحى واتفق أن ذلك اليوم وهو ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ كان عيدا من أعياد الجمهورية فشهد نقله أقارب يعقوب والقبط الذين رافقوه وعدد كبير من الركاب وتولى البحارة الانكليز بامر رئيسهم انزال الجثة

واعترافا بفضل رجال البارجة ومكافأة لهم على المتاعب التى تحملوها قدم شقيقه حنين حنا عند وصوله إلى مرسيليا لكل بحار هدية تعادل قيمتها ريالا

وبعد مابقيت الجثة فى المحجر الصحى نحو ٢٥ يوما احتفل بتشييعها احتفالا فخما أدت فيه عساكر جيش الحملة الفرنسوية التحية العسكرية وكذلك الفيلق القبطى ووصف ذلك شاهد عيان هو الطبجى لويس يوسف بريكار فى يوميته فقال : —

« فى يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ خرجت من المحجر الصحى جيوش الجنرال روبين وفى نفس هذا اليوم كان الاحتفال بتشييع جنازة المعلم يعقوب قائد الفيالق المسيحية فى مصر وقد توفى فى أثناء عبور البحر »

ودفن يعقوب فى مقبرة كانت ملحقة بالكنيسة القديمة للقديس مارتان ثم نقلت جثته الى الجبانة الجديدة المعروفة بجبانة القديس شارل ثم نقلت فى سنة ١٨٦٥ الى جبانة القديس بطرس فى مدفن عائلته ودفنت بجبانة كريمته التى توفيت فى سنة ١٨١٢ وعمرها ١٩ سنة تحت ظل النخيل الذى غرسه احفاده حول نصب المقبرة لتعيد ذكري شاطىء النيل

« * »

ويظهر قدر يعقوب من شهادات العظماء والمؤرخين واليك بعضا منها : —

(١) كتاب من القائد العام بونابرت (نشر بصفحة ٢٤٨ من تاريخ نقولا الترك) قدر فيه شجاعة الجنرال يعقوب قدرها ووعده باعلاء مرتبته

(٢) كتاب فى ١٢ مارس سنة ١٨٠١ من الجنرال مينو يقول فيه : —

« لو لم يكن الامر بحاجة الى شىء آخر غير الشجاعة يايعقوب لاستصحبتك معى لانى واثق أنك من أشد المحاربين بأسا ولكنك تمتاز بصفات أخري أكثر نفعا من الشجاعة لذلك تركتك هنا لتسهر على مصلحة الجميع » . الى أن قال « وأرجو أن تبث شجاعتك ونشاطك فى القبط الذين تقودهم »

(٣) اقوال الذين كانوا فى جيش الشرق عن يعقوب . قال الجنرال بليار الذي اشترك فى حملة غزو اقليم طيبه : « يعقوب القبطى يلعب الآن دوراً عظيما فى البلاد فالأهلون ينظرون اليه

كالسلطان الكبير وقد كانت فرقتنا المكونة لجيش الوجه القبلى تنظر بعين الاحترام الى جيش المعلم يعقوب »

وقال فيفان دينون الملحق بحملة مصر والمرافق لقوة الجنرال ديسيه الى اصوان

« المعلم يعقوب رجل ممتاز بمواهب عجيبة وهو مثال الامانة والاخلاص.. ويملك ثروة كبيرة كما ان له منزلة عالية فى البلاد وهو ينفق بسعة كعادة الشرقيين فى الكرم »

وكتب الجنرال مينو الى بونابرت كتابا فى ١٠ برومير للسنة التاسعة للجمهورية مايأتى :

« إنى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لناخدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا »

وقال المسيو جورج ريجو أحد الكتاب الحديثين « ان كفاءة المعلم يعقوب المالية هى فوق كل مناقشة »

وقال الاستاذ محمد صبرى فى مؤلفه تاريخ مصر الحديث المطبوع فى سنة ١٩٢٦ ماملخصه :

« ان يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنسوى التحق بخدمة الفرنسويين الذين دخلوا مصرأصدقاء يحملون راية جديدة هى راية الحرية وبارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط وكانت فكرته الاساسية مخاطبة انكلترا فى امر استقلال مصر ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت فجأة على مشروع مفاوضة دول أوربا فى ذلك الاستقلال »

« * »

وهنا نأتى الى أمجد صفحة فى تاريخ الجنرال يعقوب فانه فى اليومين اللذين أقامهما فى البارجة قبل مرضه اتصل بقائدها القومندان « جوزيف ادموندس » وأخذ يحدثه بما كان يجول فى نفسه عن مستقبل بلاده فلقى من القومندان إصغاء وإقبالا عليه واهتماما بحديثه لأنه عرف قدره وأدرك أنه زعيم قومه فوثق به يعقوب وكاشفه بما أعده من مشروعات لاستقلال مصر

وكان حديثه مع القومندان سريا لم يحضره سوى سكرتيره المدعو لاسكاريس ، ولما توفى يعقوب تولى لاسكاريس تدوين ذلك الحديث فى مذكرات قدمها الى القومندان ادموندس وبسط فيها مشروع الاستقلال ونوع الحكومة الوطنية التى تؤلف فى ظل هذا الاستقلال وطلب من القومندان أن يبلغها للحكومة الانكليزية كما أنه أرسل الى بونابرت القنصل الأول مذكرة بامضاء « نمر أفندى » بالنيابة عن الوفد المصرى ومذكرة ثالثة الى المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسوية طالباً منه أن يستقبل هذا الوفد ليبسط له شفوياً الغرض الذى يسعى اليه

وقد نفذ القومندان ادموندس ماطلب منه فأرسل كتابا الى اللورد الاول للبحرية الانكليزية

وأرفق به مذكرات لاسكاريس المشار اليه وبقيت هذه الوثائق محفوظة فى وزارة الخاجية الانكليزية الى أن عثر عليها من سنوات كما قدمنا

وقيض الله فى هذا العصر من كشف عن هذه الصحيفة المجيدة فى تاريخ الجنرال يعقوب إذ عثر الأستاذ شفيق غربال فى سجلات وزارتى الخارجية الانكليزية والفرنسوية على مايثبت أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما تبع الجيش الفرنسوى الى فرنسا كان قصده تحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر

وقد أشار الى هذه الوثائق فى مؤلفين له أحدهما باللغة الانكليزية وعنوانه « The Beginning of the Egyptian Question » والثانى باللغة العربية وعنوانه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ » وقد طبع فى سنة ١٩٣٢. كما أشار اليها غيره من قبل

وقال الأستاذ شفيق فى هذا الصدد مايأتى :

« بدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقته بالفرنسيين . خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين . خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس الجوهرى وملطى وأبو طاقيه وغيرهم من كبار الاقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص من جهة أخرى مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضة ماملكوه من مال وجاه ولايفارقهم سهما زادت حاجة الحكام اليهم . وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى

« ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان فى أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوائف غير الاسلامية منها نظرت فى أول الامر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التى نظر بها يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر . أول مافى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لاهو عثمانى ولا مملوكى وانما هو مزيج من مساويء الفوضى والعنف والاسراف ولاخير فيه للمحكومين ولا للحاكمين اذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأى يعقوب أن نوعا من أنواع الحكم لايمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت . وثانى مافى تأييده للاحتلال انشاء قوة حربية مصرية « قبطية فى ذلك العهد » مدربة على النظم العسكرية الغربية — ونحن نسلم بان هذه القوة كانت أداة من ادوات تثبيت الاحتلال وبانه لولاهذا لما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها ـ غير انه يلزمنا أن نذكر أيضا أن الدلائل كلها كانت تدل على ان هذا الاحتلال لن يدوم وأن القائد كليبر نفسه الذى اذن بانشاء القوة القبطية كان لايرى

البقاء فى مصر وانه لهذا حاول كما نعلم ـ الجلاء عنها بعد اتفاق العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ ذلك الاتفاق الذي كان له بعض العذر فى نقضه . وسنبين فى موضع آخر أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وانهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها

« كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الامة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين . وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيث كانوا بالأمس : الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبي الذي لا يؤدي لتغير جوهرى والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم ـ وهنا الفرق الاكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى الى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذى تسهل اثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر . فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك والبانيين وما ماثلهم

« وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على خورشيد ـ هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ليس فى الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الاشراف إلى جيش ـ والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالامر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد وهو بهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء ـ أما يعقوب فله شأن آخر إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وانما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تعزيز مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين : ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الالبانيين باتراك الوالى العثمانى خسرو ـ ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على ذكر ان الالبانيين كانوا يقولون للعامة من اهل القاهرة « نحن مع بعضنا وانتم رعية فلا علاقة لكم بنا أنتم رعية تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل مالكم »

« أراد يعقوب أن يكون الامر غير ذلك وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة

مدربة على النظم الغربية فكان سباقا الى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى ادراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان » أﻫ

وفى سنة ١٩٢٤ نشرت الجمعية الجغرافية الملكيه بعنوان « مصر المستقلة — مشروع سنة ١٨٠١ — وثائق لم تنشر قبلا وجدت فى محفوظات وزارة الخاجية فى لندن » (وهى الوثائق التى يقول الاستاذ شفيق غربال فى رسالته انه عثر عليها هو أيضا فى هذه المحفوظات) ـ مقدمة باللغة الفرنسوية بقلم المسيو جورج دوان نقتصر على نقل الفقرة الآتية منها وهذه ترجمتها :

« والذى نروم أن نذكره وننبه اليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثا فى محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظل حملة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين فان واحدا منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم الا أن موته قبل الأوان فى أغسطس سنة ١٨٠١ حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوربا »

وثائق مشروع الاستقلال

من القبطان جوزيف آدموندس ربان السفينة الحربية بالاس

للأرل أوف سانت فنسنت اللورد الاول للبحرية الانجليزية

على ظهر السفينة بالاس

جزيرة منورقه فى ٤ أكتوبر ١٨٠١

سيدى

أبحت لنفسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقاداً منى بأنه قد يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصا يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى باريس فى الوقت الحاضر

كان ممن ركب فى مصر السفينة بالاس تحت إمرتى رجل قبطى ذو سمعة حسنة جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير . وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده

هنيت بعض العناية بهذا المنكى السيء الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون بلاده . وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها وأنه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عله يخفف عن مواطنيه ماقاسوه وان الفرنسيين خدعوهم وان المصريين فى الوقت الحاضر

يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وانه لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا . وقال أيضا ان الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف إلا قليلا عن قوة انجلترا البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة انجلترا فان رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر لن تتحقق . وأضاف صديقه لاسكاريس ـ وهكذا وصف نفسه ـ وكان يترجم أقواله لى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفداً فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الاوربية فى أمر استقلالها . وفى أثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان «لاسكاريس» بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتابى هذا . وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته فى أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته . وقد قرر لى المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقيا وان المفوضين الآخرين على ظهر السفينة بالاس لايزالون أعضاء فيه . هذا وانى لم اتمكن من أن أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس الا سكرتيرا مترجما له . وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى . وأظنه بيد مونتى الاصل وسمعت أنه من أولئك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطة وتبعوا جيش بونابرت . وقد أعطيت ميثاق للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالا يؤذيهم . هذا ولما كان من المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذى لا يمكننى تقدير مدي مابيده من تفويض للاقامة فى باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة . إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لابلاغها أولا لرئيسى اللورد كيث . وأرجو أن تتنزلوا فتقروا مسلكى هذا

ولى الشرف . . . الخ

* * *

مذكرات مرفوعة للقبطان أدموندس لتذكره فى الوقت المناسب له برؤوس أهم الموضوعات التى تبادلناها فى احاديثنا السياسية على ظهر سفينته

ـ ١ ـ

الخطاب المرفق به هذه المذكرات موجه للورد النبيل . وقد يظهر لاول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطا عاديا فى الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء . ولكنه يجب أن يعتبر فى الحقيقة ملخص السياسة التى دارت بيننا على ظهر السفينة . هذا ولما كان الاسهاب فى شرح خطتنا فى الوقت الحاضر أمر أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الاقل لتذكيرك باهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن ابلاغك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل

فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم . حتى يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لانجلترا مسند نستند اليه لدى حكومته وليثق بأنه سينتصر لقضيـة فيها منافع لأمته . وأى قضية أليق منهـا بسعى لورد نبيل مثله !

— ٢ —

وأذا سلمنا بأن ماسيعرضه الوفد المصرى لدى الحكومات الاوربية على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الاهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الأقل ـ أيها القبطان ـ ان الدول لن تعمل أبداً عملا أمجد وأنبل من أن تبدد بقرار سيامى واحد ظلمات الجهل والوحشية التى تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التى يمكن القول عنها إجمالا انها كانت موضع قيام الحضارة التى نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت الينا وإذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الاقل عطف الدول الاوربية عليها حتى اذا ما كان ذلك وردوا اليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التى تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها فى مصالحها

— ٣ —

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل « المسألة المصرية » . . : وفى هذه الاثناء قد تقترحه عليهـا الحكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحكومة الانجليزية أن تعلم ان الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعليها إذن أن لايريبها أمره ... فان المصريين... ولا نظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسى إلا على سبيل المجاراة . والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح انجلترا . ومما لاشك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لاتزال على ماكانت عليه من الرغبة فى تملك مصر

— ٤ —

تتداعى الامبراطورية العثمانية فى جميع أجزائها للانحلال ويهم الانجليز إذن قبل حدوث هذا أن يدبروا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هذا الحادث المهم عند وقوعه وإذا تبين لهم استحالة استعمارهم مصر — كما استحال هذا على فرنسا — «فلهم عوضا عنه » خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلترا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . وليس من شك فى أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التى تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقيه الوسطى . ولابد

ن أن انجلترا بحكم مركزها فى الهند تهتم جداً بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد
ذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا

— ٥ —

وكان مراد بك يقول ـ وربما كان على حق فى قوله ـ ان كفار الغرب «كذلك سمى الأمم
لأوربية» قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وأن الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون
ائماً مثار اختلافهم . قد يقال أن انجلترا لا حاجة بها إلى ذلك الامتلاك إذ أن سيادتها البحرية
تم أن تكون كل تجارة مصر فى يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ فى مصر . ولكن
اذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالى الطبيعية وأخذت
دولة العثمانية تجرى على سياسة إرضائها أكثر من ارضاء انجلترا ؟ ألا تمضى الدولة فى هذه الخطة
تغلق أبواب مرافئها فى وجه الانجليز ؟ أليس من الممكن أن يضغط الفرنسيون الترك براً
يحملوهم على الامعان فى عدائهم للانجليز وتحطيم تجارتهم فى أراضى الشرق الأدنى وفى
بحر الأحمر ؟

— ٦ —

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما أتبعه هؤلاء من طرق فى
كمهم فى أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بى للكلام فى هذا لأنى أعتقد أنك تتذكر بسهولة مادار
ننا من حديث فيه . كل شىء إذن يبرهن — الأسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو
لانجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقاً — ان مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية
نجلترا . فعلى هذه إذن أن تسمح سياسياً على الأقل باستقلالها هذا إذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه
على هذه الخطة ما نتوقعه من حوادث فى المستقبل

— ٧ —

فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟
كيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا فى تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التى يفكر فيها الوفد المصرى
حكم البلاد ويكفى الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استنارة الأمة
حتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شىء من هذا . بل تضع
اعده الظروف القاهرة وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون
عاطفتين خليقتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة « وليس هذا بالأمر العسير»

أن ترفه من عيش الناس بعض الشيء وأن تزيد كسبهم قليلا فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين . أو ليس أى نظام أفضل من الاستبداد التركى ؟ لتكن إذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام العربى فى الصعيد «وقد حدثتك عن تاريخه» ولتثق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوربية ؟ لا نتوقع حدوث شيء من هذا إلا بعد زمن طويل وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء . اما ان كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فانا نعتقد أن الدول الأوربية تحظر عليهم مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم أن يستخدموا جيشاً أجنبيا من ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه . ويكفى هذا الجيش الاجنبي لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها ويكون هذا الجيش الأجنبي أيضاً نواة الجيش الوطنى . هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهم لا يعملون أي عمل إلا للحصول عليه فاننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية وتنذرهم بشر مستطير

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف وأن هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتتكافأ بذلك قواها . وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون الاخرى . وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحكومة التركية فى مصر ولابد من هذه الحيطة ازاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك حقيقة الامر لما ترددوا فى الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الأخوان قد تحدوا غضب الترك « وأمنوه » ولكن اخواننا فى مصر حالهم غير هذه . هم تحت السيف والعصا . فليس أمامهم إلا المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين

— ٨ —

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدي الحكومات الأوربية « خاصة » كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذى يثقل حمله على بلادهم التعسة ولكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضمانا يقيهم على الأقل ، إذا عادوا لوطنهم شر انتقام الترك منهم

— ٩ —

هذا ولو أن الوفد المصري لدى الحكومات لن يعمل إلا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية « وليس تضميننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة على صحته » فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سر المفاوضة لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل فى مراسلاتنا عند الحاجة اليه

— ١٠ —

ويرى الوفد المصري حرصاً على تحقيق ما يصبو اليه من إبلاغ المفاوضة غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من ممهدات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرىء فى مقدوره عرقلتها . وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أوربا كى تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات الاولى « الخاصة بالاستقلال » على انجلترا . وتكون انجلترا عندئذ قد اقتنعت « وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا » معكم وسعى اللورد بما فى الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصرى لأن يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الأمتين إحداهما من الأخرى أو حذر دسيسة من دسائس الجمهورية (الفرنسيه) . .

— ١١ —

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد يمكنك أيها القبطان أن ترسل ما تريد للسنيور الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا وهو يتولى إرسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على أن يوضع تحت عنوانه عنوانى . أما ما قد يرسل لى « من غيركم » من انجلترا فان وصولنا إلى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين اقيم . وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة « الانجليزية » ولكن تلزم الحيطة التامة فى هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسيه بالمرة . .

على ظهر السفينه بلاس فى ٢١ سبتمبر سنه ١٨٠١

من نمر أفندى بالنيابة عن الوفد المصرى للقنصل الأول بونابرت

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسيه من الوفد المصرى الكثير الحب له . محجر مارسيليا فى أول فنديميير من السنه العاشرة «٢٣ سبتمبر ١٨٠١ »

١٨ صفر سنة ١٢١٦

فى أيام العالم الأولى ، فى تلك العصور البعيدة المجهولة ، عندما كانت فرنسا لا تختلف كثيراً

عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الاغريق ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالأمس إلى فرنسا وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويتعرفوا ما اهتدت اليه من وسائل لا عهد لغيرها من الأمم بها ، تلك الوسائل التى مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته فى ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة .. وكما أن صولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للأغريق ، كذلك الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هذا أيها القنصل الأول إذ اتنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد وأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفلا شرقياً يجدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته . ولابد أنك تحس إحساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر فى معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقا به .

نمر أفندى
عن الوفد المصرى

«حاشية » أغا الانكشارية وعضو الوفد ، الذي عرفته أيام ان كنت فى القاهرة يرجو منى أن أعيد ذكر ما شرفته به من عطفك عليه » ن . أ

* * *

من نمر افندي لوزير الخارجية الفرنسية (تاليران)
(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل فى مرافىء الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم من رئيسه الجنرال يعقوب الذي مات فى أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه أن يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضمه هو وهؤلاء المهاجرين فى كنفك وتقول له كما يقول بدوي الصحراء لضيفه « كن فى أرضك »

كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى فى الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم افريقية الوسطى الجذابة الخفية فبذل جهوداً كثيرة غير مثمرة ليعلم فى فرنسا شباناً من المصريين وعلى الأخص من القبط . فان بطريرك هؤلاء هو فى

الواقع بابا الاحباش . لم ينجح الملك في سعيه هـذا . واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ماعجزت عن تحقيقه - اللهم الا الجزء الضئيل منه - الملكية الفرنسية المطلقة وقد بلغت منتهى القوة الاستبدادية . هذا والوفد المصرى النائب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل مايجول فى نفوس مفوضيه الكثيرين من شعور بصالح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى ومايملكون من اصالة تدبير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الأولى سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد ، والثانية وضع أملهم فى فرنسا ، اعتقاداً منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملهم ، نتقدم اليك إذن أيها الوزير برأي : تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة عظيمة لم لاتتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض مافقدته ؟ إنك ان تفضلت فدعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع انجلترا فانا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى فى الشرق وتدرأ عنه ماقد يفقدها إياه زمناً طويلا من أثر الجلاء عن مصر وما آل اليه أمرها الآن وسعى الدول التى تخشى بحق علو كلمة فرنسا . بل نستطيع أن نؤكد اكثر من ذلك . نستطيع أن نؤكد أن فرنسا اذا أرادت يمكنها بواسطة أمة لن تكون الا موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقية . وهكذا يتحول ترككم مصر للانجليز من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الاول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية

ولايرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فائدة فى الاسهاب ، فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يبين عن مقاصده مالايستطيع فى عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر فى الكلام على مانشاء وان كنا فى الكتابة لانبلغ إلا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجبه علينا كثرة شواغلك السياسية من الاجمال فى الرسائل ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وأن تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا فى باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى . فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم ، وفضلا عن هذا فهذه الأزياء الشرقية قد تذكر القنصل الاول بفتوحه وراء البحار وترضى المستطلعين ممن لم يتبعوه للشرق

والوفد المصري يعلم أن وقت القنصل الاول الذى تصدر عن ادارته أمور الحكم حتى فى جزئياتها وتستظل الدولة فى ظله الظليل أثمن من أن يصرفه فى التفكه بقراءة مايرد اليه من الرسائل الخاصة ولكننا نرجو أن يقدر أن وفدنا جديد فى بابه وأنه يصل الى فرنسا فى ظروف خاصة وأن كتابنا له المرفق بهذا له ماله من أهمية فيتنزل لقسلمه منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور

المبادئ السياسية الحديثة

للاستاذ رمزى موير مدرس التاريخ الحديث بجامعة منشستر

تحكم الافكار الناس سواء أعرفوا هذه الحقيقة أم جهلوها ، وذلك ماجعلهم ينتسبون بحق للانسانية . وليس بين جميع أفكارهم ماهو أهم أو أقدر على اثارة عواطفهم من الافكار السياسية — أى افكارهم عن الكيفية التى يجب أن تدار بها مصالحهم المشتركة مثلا أو كيف تكون سلطات الدولة او من هو الذى يدير هذه السلطات ، وكيف ينتفعون بها

إن تصوراتنا السياسية موروثة من ناحية عن اسلافنا ، وهي مقيدة من ناحية أخرى بمركزنا فى العالم ، ولكنها دائمة التحول بتغير ظروف الحياة وبالمشاكل الجديدة التى تتركها هذه التغيرات ففى الازمنة العادية الهادئة يكون التغير تدريجيا بحيث لايلاحظ ، ولكن فى الازمنة السريعة التغير تسبب الافكار الجامدة قلقا يتمخض عن صراع قوى بين القديم والحديث وبالتالى اختلاف عظيم فى الافكار

يعيش الناس اليوم فى عصر فاق فى سرعة تغيره جميع العصور التاريخية المعروفة ، ولذا امتازت الافكار السياسية السائدة اليوم بعدم استقرارها وتغيرصورها ، ونشأ عن ذلك صراع شديد بين الأفكار التى تتمسك بها وبين الآراء الحديثة التىاوجدها التطور الحديث ، ولذا ارتبكت أغلب الجماعات فلم تعد تدرى بأى المبادىء تؤمن وبأى الآمال تتعلق

وقبل أن نبحث المبادىء المختلفة التى تؤثر فى الوقت الحاضر علىعقول الافراد يجدر بنا ان نلم بالمظاهر الرئيسة للعصر الحديث

ان اول مظاهر العصر الحديث هو التقدم العظيم للعلم خلال الجيلين الماضيين فقد وصل فيهما الانسان الى درجة عظيمة فى التغلب على القوى الطبيعية . والحق أن تغلب الانسان على الطبيعة حدث تدريجيا خلال قرون عديدة ، ولكن التقدم كان سريعا للغاية فى المدة الاخيرة وذلك لنمو الصفة الأممية التى يمتاز بها العالم ، فان كل اختراع حديث يصبح عقب انجازه

ملكا للنوع الانسانى كله او ملكا للقادرين على فهمه واستعماله ، فليس هناك اختراع يخفى سره زمنا طويلا

كان من نتائج القوة التى حصل عليها الانسان عن طريق العلم ، انه اصبح فى امكانه ان يزيل من على سطح الارض الفقر والعبودية اللذين كانا نصيب اغلبية الناس العظمى منذ فجر التاريخ . وهذه النتيجة العجيبة فى الاستطاعة الوصول اليها اذا امكننا الحصول على الموارد الطبيعية التى لاحصر لها لفائدة جميع الناس مقابل نتيجة عملهم . ولكن هذه القوة الجديدة التى أوجدها الانسان اصبحت تستخدم فى اغراض الهدم كما تستخدم فى اغراض الانتاج

وفى قدرة الذين فى يدهم هذه القوة هدم المدنية التى شيدت ببطء وبجهد عظيمين خلال العصور العديدة ، لأن الحرب اصبحت تحت الظروف الحديثة وبالاسلحة العصرية اشنع وافظع مما كانت بدرجة عظيمة . فاذا استخدمت هذه القوة الانسانية الجديدة الهادمة بدون تفكير ، لمحي النوع الانساني واصبحت اعمر المناطق قفرة ، ورجعت بقية البشرية التعسة الى البربرية

وثانى مظاهر العصر الراهن يرجع الى التغلب على مسألة المسافات بواسطة طرق المواصلات الحديثة التى بلغت حدا عظيما من السرعة حتى جعلت جميع سكان العالم يتصلون بعضهم ببعض بسهولة عظيمة لم يعهدوها من قبل . فساعد هذا الاتصال على تشابه كثير من النظم الاجتماعية فى انحاء العالم المختلفة ، وكذا تقدمت التجارة الاممية واصبحت جميع ممالك العالم تعتمد على بعضها البعض فى المعاملات التجارية فكل منها يحتاج لمنتجات الآخر مهما تنوعت موارده الاقتصادية

والمظهر الثالث هو نمو الديموقراطية ، ولا يقتصر معناها على نظام الحكم النيابي ، بل يتعداه الى الحياة الاجتماعية نفسها فقد أصبحت الديموقراطية مبدأ عاما يرى فى جميع مظاهر الحياة ، واعتنق الناس الفكرة على أنها حق ازلى . ويرجع الفضل فى ذلك الى انتشار المعرفة السريع بواسطة الصحافة واللاسلكى . وذهب الزمن الذى لم يكن يلتفت فيه الانسان الى شؤون الامم الاخرى ونما في الوقت نفسه الرأى العام الى حد بعيد

والمظهر الرابع هو ازدياد سلطة الحكومة حتى أصبح من المتعذر مقاومتها لانها باتت تتسلط على الرأى العام عن طريق الصحافة والاذاعة . ولذلك فان كل حزب او جماعة يستطيع ادارة دفة الحكم ويسيء التصرف فى هذه الادارة فانه يؤذى مواطنيه كما يؤذى بقية العالم المتمدين . وهذا هو الطريق الذى سلكته الدكتاتوريات التي امتازت بها السنوات التي تلت الحرب العظمى . لذلك

فانه من الضروري ان تخضع الحكومات للنقد القوى والرقابة الشديدة

لاشك فى أن مثل هذه التغيرات العظيمة التى طرأت على حالة الانسان الاجتماعية تدفعه الى وضع افكاره عن صورة الدولة التى يرغب فيها وكيف يصل الى تحقيقها فى بودقة الاختبار وذلك مايجعل من العسير اعطاء فكرة واضحة عن الآراء التى يتبعها الناس اليوم

إن اقوى الافكار التى تؤثر فى الوقت الحاضر على عقول الافراد هي فكرة عصبة الامم التى كانت حلم الشعراء والفلاسفه فاصبحت الآن حقيقة واقعـه لتوحيد مصالح الشعوب المختلفة والمحافظه على استقلال الدول الضعيفة

وهناك ثلاثة آراء عن عصبه الامم يعضد الرأى الاول انصار السلام التام الذين يريدون أن تـكون سلطة العصبة على امم العالم المختلفه نافذة دون الالتجاء الى السلاح والفريق الثاني يحتم وجود قوة وراء قانون العصبة . والفريق الثالث ضعيف الثقة بالعصبة ويرى انها يجب أن تقتصر على تقريب وجهة النظر بين الدول المختلفه عن طريق المحادثات لاغير وعلى كل أمة أن تعتمد على قوتها الخاصة

وعلى العموم فان أغلب أنصار العالمية لايرون سبيلا لتحقيق السلام إلا إذا أصبحت التجارة حرة ، فيحصل جميع الناس على الفائض من محاصيل الامم المختلفة ، ويعتقدون بأن توزيع الاراضى وموارد الثروة فى العالم هو توزيع مجحف يجعل بعض الامم القليلة السكان الغنية تحظى بمساحات عظيمة من الاراضى بينما تحرم غيرها من الامم الفقيرة الـكثيرة السكان من هذه الاراضى . الامر الذى يؤدى الى الحرب لامحالة ، إلا إذا أعيد توزيع هذه الاراضى على يد عصبة الأمم

تقول الفـكرة القومية بأن للامة الحق فى التحرر من الرقابة الخارجية والعمل على تحقيق أغراضها . وكانت هذه الفكرة القومية على أشدها خلال القرن التاسع عشر . وكان انتصارها العظيم فى الحرب العظمى عندما أصبحت بعض الأمم المقيدة دولا مستقلة . وليس هناك أى تناقض جوهرى بين القومية والعالمية لأن النظام الدولى القوى الذى يعمل لحفظ السلام وتسوية المصالح المشتركة أحسن الوسائل لحفظ الاستقلال القومى

أدى نمو القوميات المختلفة إلى تسابق الدول الصغيرة فى التسليح وفى اقامة الحواجز الجمركية مما يهدد سلام العالم ورضاءه لقد انقص الاقتصاد القومي فى ممالك العالم المختلفة التجارة الدولية إلى ثلث ما كان عليه قبل الحرب وكان سبباً فى العسر والبطالة المشاهدين فى كل مكان . وحرمان

كثير من الشعوب من فائض محاصيل الشعوب الاخرى

تتأثر اليوم أغلب الممالك بمبدأ الاقتصاد القومي . ويعتقد معظمها بأنه نوع من الحرب وأن فى استطاعتها الاثراء على حساب غيرها . غير أن هذا المبدأ يؤثر كثيراً على بعض الدول كاليابان وألمانيا وايطاليا فهى رغم كثرة سكانها تجد نفسها بدون ممتلكات خارجية بعيدة عن رضاء العالم من أثر الحواجز الجمركية التى تضعها غيرها من الممالك

كان من شأن الدول المحرومة السخرية بعصبة الامم والقول بأنها ما وجدت إلا للدفاع عن مصالح بعض الدول واستغلال الدول الضعيفة وعلى ذلك أخذت تجند شبانها وتحد من حرية الرأى فى سبيل الروح القومية حتى أصبح عملها نوعاً من التعصب كما هو الحال فى ألمانيا وايطاليا

سيكون الصراع بين القومية والعالمية الذى أعقب الحرب العظمى أهم مشاكل الجيل الآتى وفى هذا الصراع تسير القومية فى طريقها بينما تكون العالمية منقسمة فى أغراضها لأن كل الامم التى تعضدها مازالت مشبعة بالشعور القومي الشديد خصوصاً فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية . وقد يؤدى هذا الصراع إلى هدم الحضارة القائمة على التعاون الأممي

تتعدد المبادىء السياسية التى تمثلها المبادىء المختلفة ، ولكنها تنحصر جملة فى بضع مذاهب من السهل تمييزها

يوجد المحافظون فى كل مملكة تقريباً . وتمتاز آراؤهم بالاهمية التى يعلقونها على ما أصابته الانسانية من التقدم وكراهيتهم للمخاطرة بهذا التقدم عن طريق التجارب الثورية . وينضم تحت لواء المحافظين كل من يرضى بالاشياء كما هي ومن يخشى العالم الغريب الحديث الذى نعيش فيه. وأشد ما يدافع عنه المحافظون الاحتفاظ بامتيازات الطبقات المختلفة . وفى الامم المتقدمة توجد المحافظة مشبعة بالديموقراطية وهي الفكرة السياسية التى سادت خلال القرن التاسع عشر ، ويشمل برنامج هذا الفريق حرية الفكر والرأي ونظام الحكم الديموقراطى

ويكون اخلاص المحافظين للديموقراطية على أشده عند ما تعمل الديموقراطية على رفع العناصر المحافظة فى الجماعة . وهذه هى الحال فى انجلترا وأمريكا وفرنسا ، فان المحافظين يلهمهم اخلاص عميق للتقاليد والمظاهر الوطنية . ويميل المحافظون فى كل مكان للقومية . وهم لذلك أشد المعضدين للاقتصاد القومى

يخلص كثير من المحافظين للعالمية إذا رأوا أن التعاون الدولى يؤدى إلى الاحتفاظ بكل شيء

على ماهو عليه . بينما يقوم هذا الاخلاص فى الممالك الغنية لان العالمية تقضى باعادة توزيع الاراضى

هنالك نوع من المحافظة ظهر فى الممالك الغير الراضية هو الفاشية وكان نمو الاول فى ايطاليا . وروح الفاشية هى عصبية قوميه تجزم بسمو نوع معتنقيها وتبشرهم بمطالب كثيرة تتطلب سلوكا شديداً لتحقيق هذه المطالب

وترفض الفاشية كالمحافظة الافكار الحرة التى كانت سائدة خلال القرن التاسع عشر ولكنها فوق ذلك تحتقر الحرية وتمجد الخضوع المطلق للحكومة وترفض الديموقراطية فهى نوع من الاستبداد قائم على طرق من الرعب ، مما يؤدى إلى انعدام حرية الفكر والعمل . حيث يخضع كل شيء للحكومة حتى التجارة والدين

وطريقة الفاشية فى الحكم شبيهة بطرق لويس الرابع عشر وفردريك الاكبر . ويعد زعماء الفاشيه كهؤلاء الطغاة بكل أنواع الخيرات لرعاياهم ماعدا خيرات الحرية . ولكن من ينتفع بالنظام الفاشى هم الاغنياء والاقوياء . أما بقية الافراد فيقيدون بفكرة الخضوع للدولة كأنهم رهبان وقد أظهر المثل الاعلى الفاشى نوعا من الحماسة يشبه الحماسة الدينية خصوصاً بين الشبان . حتى أصبحت الفاشيه عقيدة تقوم على العذاب وتحكم على كل من يخالف مبادئها بالموت

ان فكرة الديموقراطيه التى لاقت نجاحا عظيما خلال القرن التاسع عشر تجد كثيراً من الاضطهاد فى الامم التي اعتنقت الفاشية والاشتراكية . وروح الديموقراطية هي الاعتقاد فى قداسة الشخصية الانسانية فهي تجد في الافكار الفردية الشجاعة والنشاط اللذين هما مصدر التقدم البشرى . ولذا فانها تقول بأن من حق كل فرد وكل جماعة أن يكونوا أحراراً ليستخدموا قواهم الخاصة بطريقتهم الخاصة مادامت هذه الحرية لاتؤذى حرية الآخرين . وعلى ذلك فان واجب الحكومة التى تمثل الجماعة هو ضمان عدم تعدى القوى على حرية الضعيف ، وتهيئة الظروف التى تصل فيها الكفاءات الشخصية إلى أسمى رقيها . وهذه هى أهم وظائف الدولة . ويجب فى نفس الوقت أن يكون وجود الدولة لخدمة الفرد لا وجود الفرد لخدمتها . ولا يميل الديموقراطى الى أى تضخم فى سلطة الدولة لاتمس الحاجة اليه

ويكره الديموقراطى الاحتكارات سواء كانت لافراد او لهيئات تعمل باسم الحكومة . كما يؤمن بحرية الفرد وحرية الفكر والصحافة والمساواة امام القانون وحرية الاجتماع فى سبيل الاغراض المشروعة . ويكره تضخم الفروق في الثروة مما اتصفت به الجماعات الحديثة . ويعمل لاصلاح ذلك

بتوزيع الملكيات علي الافراد . ويميل الي توسيع دائرة التجارة الاممية حتى ينتشر فائض المحاصيل بين جميع سكان العالم

ويكره الديمقراطى جميع أنواع التقييد الفكرى ويتملق بالطريقة الانتخابية التى تمثل تمثيلا عادلا جميع آراء الامة المختلفة . ويحاول جعل اجراءات الحكومة أكثر نشاطا كما يعتقد بالحرية تحت حماية القانون . ويأمل فى رؤية جميع الامم تحيا تحت قانون واحد وهو يعتبر لذلك من أكبر المعضدين للعالمية

وهناك نوع من الديمقراطية المبالغ فيها التى تعتقد بمبدأ حرية العمل والتى تقول بأن الحكومة يجب أن لا تتدخل فى أي أمر وعلى الخصوص فى المسائل الاقتصادية حتى فى مسألة حماية الضعيف من جور القوى ، وتأخذ هذه الديمقراطية شكل الفوضوية التى تقول بأن كل حكومة سيئة يجب الغاؤها . وأن الناس يكونون خيرين وسعداء إذا تركوا وشأنهم ولكن هذه النظرية التي بشر بها كثير من عظماء الرجال وعلى الخصوص تولستوى لا تجد اليوم قبولا

ويلى المحافظة اليوم فى القوة ، الاشتراكية وهي الاعتقاد فى أن سلطة الدولة يجب أن تستخدم لتحسين حالة الشعب وتشترك فى هذا الرأى مع الديموقراطية ، ولكنها تخالفها فى خوفها من أن نمو سلطة ووظائف الدولة يؤدى الى الاختلاف والظلم

واب العقيدة الاشتراكية هي أن كل العلل الاقتصادية فى الجماعة ترجع الي أن وسائل الانتاج والتوزيع يملكها ويديرها أفراد . ولذا فانها تستخدم للارباح الشخصية ، لا لفائدة الجمهور وتعتقد أن كل هذه الشرور تختفى اذا كانت الملكية والادارة فى يد الحكومة . وبعبارة أخرى ترمى الى تحويل الصناعة الى احتكار عظيم يديره موظفون من الشعب وتسنده سلطة الحكومة . ومن بين حججهم فى احتكار الدولة للصناعة ان العامل يكون أكثر حرية تحت هذا النظام

وهناك أشكال كثيرة للاشتراك فمن الاشتراكيين من لا يميل الى الثورة لقلب نظام الحكم ولكنهم يقولون بشراء الملكيات الفردية الموجودة بالتدريج أى يشترون الصناعة بالصناعة وهذه العملية لن تمحو توزيع الثروة الحالى على الوجه الاكمل

غير أن الاشتراكيين المتطرفين ينتقدون أتباعهم المعتدلين قائلين أنهم لايستطيعون توزيع الارباح المكتسبة بالطرق الديموقراطية من منافسة وامتناع . فيجيب الفريق المعتدل تحت هذا الضغط بأنه عندما يتولي السلطة الحكومة سيستخدمها على أحسن وجه

وتخلص الغالبية العظمى من الاشتراكيين للتقاليد الديموقراطية فيتعلقون بحرية الفكر والكلام والاجتماع وغيرها . ويميلون فى نفس الوقت الى العالمية .ولذا فان الاحزاب الاشتراكية فى كل ممالك العالم تعتبر أقوى معضد لعصبة الامم

ومع ذلك فان الاشتراكية تضطر الى السير نحو الروح الوطنية لانها تعمل على وضع النظام الصناعى للأمة تحت ادارة الحكومة . مما جعل كثيرا من الاشتراكيين فى حيرة فيما يتعلق بالرغبة فى حرية التجارة الدولية أى تعريض صناعات الدولة الحديثة للمنافسة الخارجية . والغاء المنافسة عنصر قوى فى عقيدة الاشتراكيين ولذلك نشأت التباسات عديدة وغوامض فى الاشتراكية الحديثة . ولكن فكرة استعمال كل سلطة الدولة لالغاء فروق الثروة واعطاء كل فرد فرصة متساوية ظلت عاملا قويا على اثارة حماسة الاشتراكيين العظيمة

والانتقال المنطقى للاشتراكية هو الشيوعية التى تعتنق نفس الافكار الرئيسة للاشتراكية غير أن الشيوعى يختلف عن الاشتراكى فى استعداده العظيم واستخدام وسائله القوية لوضع أفكاره موضع العمل لاصبر له على فكرة الثورة التدريجية يري أن مجرى التاريخ ماهو الا صراع بين الطبقات ويعتقد أن الطبقة العاملة التي لاتملك شيئا يجب أن تملك الحكم عن طريق القوة . وتؤسس ديكتاتورية تعامل معارضيها بقسوة ويعتقد الشيوعى أيضا بالالغاء الكلى للملكية الفرديه وانتزاع الملكية بدون رأفة من بين أيدى أصحابها الحاليين

ثم يعمل الشيوعى على استخدام هذه الثروة تحت ادارة الحكومة العادلة لتوزيعها بالتساوى بين جميع الافراد . ولا يعتقد فى الحرية والديموقراطية ويرى كما يرى الفاشيون أنها نظم غيرصائبة ولذلك يضغط على العقائد المنافسه بما فيها الاديان بالقوة . ولا يسمح بحرية الفكر أو الكلام أو الاجتماع وأمامنا الآن مثال بارز للفاشية فى ايطاليا وألمانيا والشيوعية فى روسيا

تشترك الفاشية والشيوعية فى وسائلهما فكلاهما يرغم الشعب بأكمله علي الخضوع لنظمهما وقبول أفكار رؤسائهما . ويلح فى وجوب اعتماد الفرد المطلق على الحكومة ولكنهما يختلفان فى أغراضهما . يرغب الفاشى فى القوة الوطنيه ولذا فهو يعدبالرخاء المادى لاتباعه ويرغب الشيوعى فى وضع الجموع واسعادها ماديا . وقد أظهرت التجربة الشيوعية فى نواح عديدة فى روسيا نجاحا عظيما فى الهام اتباعها بحماسة دينية . ولكننا نتساءل هل هناك أى منافع مادية جمايها الشعب مقابل التضحية بحريته التى هي أسمى مافى الحياة ؟

هذه هى أهم المبادىء السياسيه المنتشرة فى عصرنا الراهن وهناك أشكال أخرى قليلة الشأن ولكن لايسمح الفراغ بمناقشتها . ومن المتبع ترتيب هذه الافكار السياسيه من اليمين الي اليسار ، الفاشية فى أقصى اليمين ثم المحافظه ثم الديموقراطية ثم الاشترا كية فالشيوعية وليس من السهل ملاحظة منطق هذا الترتيب ولكن اذا نظمت هذه المبادىء وفقا لمالها من السلطه أو الحرية فان ترتيبها يجب أن يبتدىء بالفاشية فالشيوعية يمينا والمحافظة والاشترا كية فى الوسط والديموقراطية فى اليسار . واذا رتبت وفقا لما بها من الفكرة الدولية والوطنية فان الترتيب يكون بوضع الفاشية يمينا والمحافظة فى المنتصف والديموقراطية والاشتراكية يسارا مع الشيوعية التى تتبع نوعا من الفكرة الدولية خاصا بها

لا شك فى أن هناك بعض الفائدة فى كل هذه الافكار فان الانسانية لا بد مصيبه هذه الفائدة رغم اختلاطها . ولكن لا تأتى الفائدة الا اذا أبيحت المناقشة بحرية أما اذا قيدت فلن يتقدم الانسان فكريا

أحمد زكى بدوى



نشوء القصة وتطورها

للأستاذ محمود تيمور

قد قسمت بحثي إلى ثلاثة أقسام : الأول : نشوء القصة فى العالم ومظهرها فى العصر القديم . والثانى : القصة فى الأدب العربى القديم . والثالث : القصة المصرية فى العهد الحديث

كان الانسان الوحشى يعيش فى عالم كله ألغاز . وكان عقله بطبيعة الحال قاصراً عن ادراك كنهها . فالشمس التى كانت تشرق أمامه وتغرب فى روعة وعظمة وفى نظام عجيب . وتلك الريح العاصفة التى كانت تثور ثورتها الهوجاء فتهدم أكواخه وتقتلع زرعه وتأتى على حيوانه . وهذه الجبال الشاهقة ذات القمم البركانية التى تفيض بالحمم والنار ، وتزلزل بقوتها الخفية الدنيا وما عليها ، فتقتل وتحرق وتخرب فى قسوة عمياء . كل هذا وما ماثله وقف أمامه الانسان الأول وقفة الحيرة والرعب ، يتأمله طويلا ويسعى جهده لتفهمه . واهتدى أخيراً إلى حل قنع به واطمأن اليه ، فمنح لعالم الجماد روحا كروحه ، وتخيله على غرار نفسه . يعيش كما يعيش ويأكل ويشرب وينام . كان يرى فى الصخرة المنحدرة من قمة الجبل — التى خلعتها الزلازل من مكانها وأرسلتها كالقذيفة على كوخه فهدمته — آدميا مثله يناصبه العداء ، ويستطيع أن يهلكه . وهب الريح فحسبها روحا جهنمية غير منظورة قادرة على أن تنكل به وبزرعه وثمره . وكان يرى فى نومه أحلاما غريبة عن أشخاص ماتوا ، فتوهمهم أحياء مثله فى عالم آخر ، يعيشون ويأكلون ويتناسلون . فخشى من كان قويا مستبداً ، وقدم له القرابين ، وأتى له بالأطعمة وذبح له العبيد . ودفن معه النساء . كل ذلك تزلفا اليه وطلبا لرضاه . وهكذا رأينا خيال هذا الانسان الاول يشتغل ويخترع ، فيفرض الفروض ، ويفسر معضلات الحياة ، فكان هذا العمل هو أول خطوة خطاها فى سبيل انشاء الاساطير ، وما الاسطورة سوى قصة خرافية صاغها هذا الانسان البدائى حسب ما أوحاه له خياله الضعيف



الاستاذ محمود تيمور

وتطورت تلك الاساطير أو القصص الخرافية شيئا فشيئا ، فأخذت تخرج عن دائرتها ،فعالجت سير الابطال ووقائع الحروب . ولكن جو الخرافة كان دائما يسيطر عليها . وبدأ الناس يسمعون قصص الغول وصاحب اللحية الزرقاء وما شابههما . وما ذلك الغول إلا رمز للحيوان المخيف الذى ظل يفترس الانسان ويرعبه دهراً طويلا ، وهل كان صاحب اللحية الزرقاء — شارب الدماء السفاح — إلا رمزاً لأمراء الاقطاعات الذين كانوا يسومون الافراد أفظع أنواع العذاب ؟

وبالرغم مما حوته هذه القصص من السخافة والعبث ، فقد عبرت عن نفسية العهد الذى كتبت فيه . فهذه أمة مظلومة ترسف فى أغلال الاستعباد أرادت أن تفرج كربها ، وتعبر عن آمالها ومطامعها . فاخترعت بطلا وهميا نسجت من حياته قصة النصر

ولما كانت الحروب أكبر عامل من عوامل تنازع البقاء وبقاء الاصلح. وكانت حوادثها بطبيعة الحال تملأ فراغ حياة الافراد والأمم القديمة — جاءت بلاغتنا الأولى صفحة دامية مفعمة بالفظائع والاهوال ، ولكن وجدت بجانب ذلك بعض القصص التى تدعو إلى السلام والمحبة . صاغها نفر من عباد الله الصالحين ، هذا النفر الذى مج القتال وحياة الفزع والتشريد . وحن إلى حياة السكينة والطمأنينة والرحمة

وكان الانسان يعيش قديما — قبل اختراع وسائل المواصلات — عيشة عزلة واعتكاف .المدن يفصل بعضها عن بعض تلك المسافات الشاسعة ، والنظم الاجتماعية والسياسية تفرق بين طبقات الامة الواحدة ، ففى البلد الواحد تكاد تعيش كل طبقة بمعزل عن الاخري .فالاشراف فى معاقلهم والعامة فى أكواخهم ، لا يعرف أحدهم عن صاحبه إلا النزر القليل . وهكذا الحال بين الامم ، فما يجرى فى أحدها من حوادث لا يصل إلى جارتها إلى بشق الانفس . أضف إلى ذلك أن وسائل التسلية كانت محدودة ، فنشأت بحكم الضرورة طائفة من الناس أخذت على عاتقها أن تسد تلك الثغرة ، فتقدم لافراد الشعب وأمرائه كل ما يرغب فى سماعه من حكايات وأخبار كانوا يصوغونها شعراً وينشدونها على نغمات الآلات الموسيقيه ، ويلقونها ممثلين حوادثها تمثيلا ، وذلك ليعظم وقعها فى القلوب

هؤلاء هم الشعراء الرحل ، أو الشعراء المرتزقة . كان الواحد منهم يجمع فى نفسه شخصية الشاعر والقصصى والملحن والمغنى والممثل ، ولا نغالى إذا قلنا والمهرج أيضا . ولم يكن همّ هذا الشاعر إلا إرضاء جمهوره على حساب الآخرين ، فهو اذا دخل قصر الأمير سرد له وقائع الأمراء فى بطولة وشهامة وكرم نادر المثال ، وهو إذا ظهر فى حلقة الشعب انبرى يروى له فضائح القصور وانهال على الامراء يغمرهم بسخريته اللاذعة ، ويلصق بهم من العيوب مايريد له هذا الشعب أن يلصق

وكنا نرى فى مصر ـ منذ عهد قريب ـ هذا الصنف العجيب من الشعراء المهرجين ، كانوا

يروون وقائع أبى زيد والزناتى على الربابة فى قهوات سيدنا الحسين ، وبالأقص فى شهر رمضان . ولكن الفونوغراف أولا ثم الراديو أخيراً أجهزا عليهم ، فلم نعد نرى لهم أثراً

وكان هذا الفنان البدائى يأخذ الأغانى من أفواه الحفاظ ، فيزيد عليها ، أو يحذف منها ، أو ينسج على منوالها ، فهو لم يكن بالحافظ الأمين على هذا التراث الأدبى ، ولا هو أيضا بالمبتكر. وعلى توالى الزمن كانت تتجمع هذه الأغانى ، فيأخذها فنان عبقرى ، وينظمها نظما جديدا فى ملحمة قوية ، يتغنى فيها بتاريخ أمته ، محدثاً الناس عن أبطالها ، راوياً لهم حوادثها الرائعة . ومن ثم ظهرت الملاحم ، وهى كثيرة ، أشهرها الاليـاذة والأوذيسة المنسوبتان لابى الشعراء هوميروس الاغريقى ، والأنياد لشاعر الرومان فرجيل

ويكاد يكون لكل أمة عريقة فى الحضارة ملاحم من هذا الصنف . فللهند المهابهاراتا وللفرس الشاهنامه ، وللطليان كوميدية دانتى الالهية ، وللفرنسيين أغانى رولان

فالالياذة هى قصة الحرب التى دامت عشرين عاماً بين طروادة وممالك اليونان ، أثارها اختطاف باريس أحد أمراء طروادة لهيلانه زوجة ملك اسبارطة اليونانية . أتى فيها هوميروس بأوصاف دقيقة خلابة عن الوقائع التى نشبت بين الفريقين ، وما تخللها من بطولة وحب ووفاء وشهامة . كل ذلك فى خيال واسع ، وشاعرية فياضة . والمعروف أن الالياذة ليست عمل فرد واحد بل هى مجموعة قصص نظمت وجمعت بواسطة الشعراء الرحل ، نخلتها الأذهان التى كانت تتناقلها على ممر السنين ، فخرجت حثالتها ومكثت زبدتها ، وجاء هوميروس وكان من فئة هؤلاء الشعراء، ولكنه امتاز عنهم بعبقريته الفذة ،فتناولها بالصقل والتهذيب والانشاء حتى أخرجها للناس درة من درر الأدب العالمى

أما الأوذيسه فهى متممة للالياذة ، ومنسوبة للمؤلف نفسه ، سرد فيها قصة يوليسيس وكيف ضل طريق البحر وهو عائد مع رجاله الى اليونان بعد حرب طراودة . وقد ذكر بعض النقاد أن هذه القصة ليست من عمل هوميروس لأنها تختلف فى الاسلوب عن سابقتها الالياذة ، وأن الروح التى تسودها روح نسائية ، فبينما نرى الالياذة قد اكثرت من وصف المعارك الوحشية والمناظر القاسية ، نرى الاوذيسة وقد تجلى فيها عراك المرأة وحيلتها ودهاؤها . وأسلوبها عليه مسحة من اللين والمسالمة . ولكن بعضهم يقول ان الأوذيسة من عمل هوميروس ، غير أنه لم ينظمها إلا فى اخريات أيامه ، فجاءت صورة لذهن الشيخ الهادىء الذي يعمل فى هوادة وروية . بعكس الالياذة فقد كتبها وهو فى ريعان الشباب والفتوة ، وذهن الشباب قوي جرىء لايعرف اللين والرحمة ، فجاءت مفعمة بأهوال الحروب وفظائع البطولة

والأنياد لشاعر الرومان فرجيل نحا فيها نحو هوميروس ، وجعل لحوادثها صلة بالالياذة وقد نظمها الشاعر تمجيداً لاسرة أغسطس قيصر امبراطور الرومان فى ذلك العهد . ومما تمتاز به هـذه

الملحمة عن سواها أن الآلهة قد لعبت فيها دوراً أكثر خطورة وأبعد أثراً مما لعبته فى الملاحم الاخرى

والمهابهاراتا الهندية ، والشاهنامة الفارسية ملحمتان عظيمتان تحويان صفحات رائعة من تاريخ ملوك كل من الأمتين

أما كوميدية دانتى الآلهية ، فهى قصة حلم خيالى للشاعر ، وصف فيه زيارته للجحيم والمطهر والفردوس ، وما قابله فيها من أناس مشهورين فى التاريخ والأساطير ، روى قصصهم وذكر أسباب وجودهم فى هذه الأمكنة . والملحمة ملأى بأوصاف رائعة لأنواع العذاب ،وألوان السعادة والهناء فى العالم الاخر . كل ذلك فى أسلوب أخاذ ، ودقة فائقة فى رسم الشخصيات ، يكسو هذا نظم ساحر وخيال فياض . وكان الشاعر يحب فتاة تسمى « بياتريس » حباً لم نسمع بما يماثله فى قوته وغرابته ، فقد بدأ حبه لها وهى طفلة فى التاسعة من عمرها ، وقيل انه لم يرها إلا مرات قليلة ، وأنها جهلت حبه وقد تزوجت بياتريس ثم ماتت ، فكان لهذه الفاجعة الاليمة أثرها فى نفس الشاعر فكتب ملحمته تمجيدا لها ، نخلد بذلك اسمها على مر الأجيال . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام التشابه فى الفكرة والموضوع بين كوميدية دانتى ورسالة الغفران للمعرى . ولا يبعد أن يكون الشاعر الايطالى قد تأثر من بعض النواحى برسالة المعرى ، فقد ازداد اتصال الغرب بالشرق على أثر الحروب الصليبية التى بدأت عام ١٠٩٩ ووفاة دانتى كانت عام ١٣٢١ م

أما أغانى رولان الفرنسية فهى قصة الحرب التى كانت ناشبة بين العرب والفرنسيين أيام فتح الاندلس. وبطلها رولان بطل خرافى من جنود شارلمان

هذا شأن الملاحم . اما القصص النثريه الكبرى فنذكر منها اثنتين ، الاولى : دون كيخوتى لسرفانتى الاسبانى « وفاته عام ١٦١٦ م» والديكاميرون أو الايام العشرة لبوكاتشيو الايطالى « توفى عام ١٣٧٤ م ». أما الاولى فهى تهكم مر بابطال الفروسية ، ولكنها فى الوقت نفسه قصة إنسانية عالمية ، تصف وصفا أخاذا هذه الشخصية المريضة المحببة ، شخصية الرجل الذى يعيش فى عالم من خياله ، يطلب العظمة والمجد ، ويبت فى الامور من فوره لايطلب تسويفا ولا تأخيرا . وقد وضع بعض النقاد شخصية دون كيخوتى مع شخصية هملت لشاكسبير فى مستوى واحد . وان كانت كل من الشخصيتين على نقيض الاخرى . فهملت ذلك الأمير البارد الطبع المتردد المثقل بأحمال الثأر لايخطو خطوة إلا بعد تفكير ممض وحساب معقد ، وربما رفع قدمه ثم أعادها حيث كانت . وقد قيل ان العالم يتكون من شخصيتين : هملت ودون كيخوتى ، كلاهما مريض ، الأول يمثل التردد والخوف ، والثاني يمثل الاقدام والتهور . فالعالم إذن وفق هذه النظرية مكون من مرضى- مرضى العقول ، أي مجانين ، وليس هذا غريبا ، فقد قال الشاعر العربى :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

أما الديكاميرون لبوكاتشيو ، فهى مجموعة من القصص الانتقادية اللاذعة ، كشف فيها صاحبها الستار عن فضائح عصره ، وأتى فى بعضها بأوصاف منافية للآداب . وقد تفوق فى أسلوبها على جميع كتاب عصره . واشتهر أمر هذا الكتاب شهرة كبيرة ، حتى قيل انه كان مصدر الهام لكثير من الكتاب أمثال شاكسبير وجوتا وشوسر ولسنغ

وكان ماركو بولو « الذى توفى سنة ١٣٢٤ م » قد رحل قبل ذلك الى آسيا ، ومكث فى بلاط كوبلا خان امبراطور المغول عشرين عاما عاد بعدها الى وطنه محملا بكنوز الشرق ، وأخذ يروى لأهل وطنه البندقية رحلته العجيبة فى تلك البلاد النائية التى لم يكن يعرف عنها الناس شيئا مذكورا فى ذلك الوقت . وكانت هذه الرحلة خليطا من الحقيقة والخيال ، تفنن فى روايتها صاحبها تفننا جعل لها سحرا وتأثيرا على النفوس ، فأخذ المؤلفون يحذون حذوها فى كتابة قصصهم . ومن ثم انتشر هذا النوع الجديد المليء بالاخطار والمحوط بالغرائب والأسرار

وكان العالم قد سار فى طريق الاكتشافات فظهر كولمبس وفاسكودي غاما وماجلان وغيرهم من مشاهير المكتشفين الذين خاطروا بأرواحهم فى سبيل تحقيق فكرتهم . وقامت الدول تتنافس فى البحر بأساطيلها وعلى رأسها المكتشفون والمستعمرون يسعون فى الحصول على الثروة من طريق التجارة أولا ثم الاستعمار ثانيا ، فقويت روح المخاطرة بين الناس ، ورأينا أثر ذلك كله فى ادب العصر . فقرأ الناس روبنسون كروزو لدانيل ديفو كتبها مؤلفها على أساس قصة وقعية لبحار يدعى سلكلرك ، قضى أربع سنوات وحيداً فى جزيرة جوان فرناندز . وكتب سويفت رحلات جلفر الى بلاد الاقزام والى بلاد العمالقة . وهذان الكتابان أصدق صورة للعصر الذى كتبا فيه . وكيف كانت أخطار البحار واكتشاف البلاد المجهولة تشغل عقول الناس وتؤثر فى نفوسهم

ولما انتهت الحروب الصليبية ، كان الاتصال بين الغرب والشرق قد قوى واشتد ، وظهرت له نتائج بعيدة الخطر ، منها ماهو مادى اقتصادى ، ومنها ما هو عقلى أدبى .وقد ذكرنا فى موضع سابق احتمال تأثير دانتى فى كوميديته الالهية برسالة الغفران للمعرى

* * *

والآن وقد تحدثنا فى ايجاز عن نشوء القصة والقصص الغربى فى الادب القديم ، نريد أن نعرض صورة للقصص العربى

أول مايصدم الباحث فى الادب العربى هو تفاهة القصة ، وقلة ما كتب فيها ، وعدم عناية العربى بها ، ولهذا أسباب سنبسطها فى حينها

والقصة فى البلاغة العربية قسمان : قسم موضوع ، وقسم منقول ، أو بعبارة أخرى قصص مؤلفة ، وقصص مترجمة . ومن النوع الاول : قصص عنترة ، والأميرة ذات الهمة ، ومجنون ليلى ، وسيرة بنى هلال وما ماثلها ، ومن النوع الثانى : كتاب كليلة ودمنة ، والف ليلة . ومعظم القصص الموضوعة لها أصل تاريخى ، فأشخاصها ابطال حرب او حب حقيقيون . وحوادثها الرئيسية التى بنيت عليها حوادث وقعت فى التاريخ ، ولكنها تغيرت بمرور الزمن عند ماتناقلتها الألسن بالرواية فكان الراوي يتناول القصة من مصدرها ويرويها للناس حسب هواه ، فكان راويا ومؤلفا فى الوقت نفسه ، ومعظم هذه القصص مجهولة المؤلف . أما التى تحمل اسم مؤلف معين فانتسابها اليه كانتساب بعض الملاحم القديمة لأصحابها . فالمؤلف لم يكن سوى جامع لأخبار هذه القصة وراويها بعد تنقيح وتعديل ، وكثيراً ما كانت تنسب هذه القصص لرواة مشهورين أمثال الاصمعى ترويجاً لها وإعلاء لقيمتها ، والاصمعى وغيره برىء منها

ومعظم القصص العربية الموضوعة عديمة القيمة لغة وموضوعا وتأليفاً ، فقد وضعت للتسلية فحسب ، وكتبت بأسلوب مهلهل يرضى العامة قبل الخاصة ، فقد دعت الحالة السياسية فى كثير من الاحيان ـ وخصوصا فى الازمنة المتأخرة ـ الى أن يفكر الامير أو السلطان فى شىء يلهى به شعبه ، ويحوله عن عمل يريد القيام به ، أو أمر يريد اخفاءه ويخشى انتقاد الشعب له فيكلف أحد الكتاب تأليف قصة مسلية ذات حوادث غريبة ، فيؤلفها ، أو بالاحرى يجمعها من مختلف الافواه أو الكتب ، ويصوغها صوغا جديداً بعد تهذيب وصقل يناسب المقام ، ثم يعرضها على الجمهور لتسرق من وقته وتحول من تفكيره . فيخلو الجو للامير . كما حدث ذلك عند ما أمر الخليفة العزيز بالله الفاطمى الشيخ يوسف بن اسماعيل بأن يضع للناس قصة يلهيهم بها عن التحدث بريبة حدثت فى بيت الخلافة كانوا قد لغطوا بها كثيراً ، فجمع الرجل أخبار عنترة ، وصاغها فى قالب قصصى ، ثم نسخها وجعل ينشرها على الناس أجزاء صغيرة فأفلح فى مهمته

وعلى الرغم مما فى هذه القصص من ضعف التأليف وخلط الحوادث ، وركاكة الاسلوب فقد نجحت الى حد ما فى تصوير المجتمع العربى فى العصر الجاهلى والاسلامى ـ المتقدم والمتأخر ـ ولو كان مؤلفوا هذه القصص قد أجادوا تأليفها وصياغتها وعنوا بتهذيبها لتكون أقرب الى الفن الصحيح مما هى عليه الآن ، ثم جمعت بعد ذلك فى سفر واحد لكان هذا السفر للاداب العربية بمثابة الالياذة

أما القصص المنقولة فنها مانقل من الاصل فى أمانة ، ككليلة ومنه ، ومنها مالحقه التغيير ـ اما بالاضافة أو الحذف والصقل والتهذيب حتى كاد يصبح غريبا عن أصله ـ كألف ليلة وليلة

والآن نريد أن نتحدث عن الأسباب التي دعت العرب لاهمال القصة ، وقد لخصناها فى النقط الآتية : —

أولا : قلة الأساطير . ويعود ذلك إلى تأثير البيئة والأقليم فى عقلية العربى

فلا يخفى أن للأقليم تأثيراً قوياً على من ينشأ ويعيش فيه . فصاحب البلاد الجبلية ذات الغابات المخيفه . والكهوف الرهيبة ، والأنهار العظيمة . وماتحويه من وحوش وجوارح ، يختلف مزاجه عن ساكن السهول المنبسطة ، حيث المعيشة هادئة والنفس مستريحة . والمرء الذى ينشأ فى ذلك الجو القاسى بزمهريره وثلوجه ورياحه ورعده وصواعقه ، يختلف اختلافا بيناً عن ذلك الذى يعيش فى جو سماؤه صافية وشمسه مشرقة . فالانسان إبن بيئته . فلا غرابة إذن اذا وجدنا العربى غير عميق فى تخيله ، وهو الذي استوطن الصحراء المجدبة ، وعاش عيشة بدوية لا يعرف له مسكناً إلا بيوتاً من الشعر ، ثروته ناقته أو عنزته ، دائم الارتحال يسعى وراء المرعى ، قنوع بالقليل ، لا تكتنفه غير الرمال الشاسعة . فلذلك نشأ قليل الأساطير . ومن ثم نشأ قليل القصص ، لاتصال الثانية بالاولى كما أسلفنا القول . وإذا كانت العبادات الأولى هى من نتاج الاساطير ، فهمنا كيف كانت ديانة العرب الاولى تافهة سطحية ، بالغة غاية السذاجة . فقد قيل انهم احتاجوا إلى إله يعبدونه . فعثروا فى الشام على الصنم « هبل » فأخذوه وألّهوه . ومن أغرب ما يروي عن آلهة الجاهلية أن العربى كان يصنع إلهه من العجوة ، فاذا جاع أكله . فهل سمعنا باله يمتهن هذه المهانة ، لولا انه قليل المهابة فى قلوب عباده ؟

وعلى عكس ذلك نجد التخيل عند الهندي قويا ، وهو الذى عاش فى بيئة رهيبة ، أنتجت له أساطير رائعة ، وديانات ذات فلسفة عميقة ، وآلهة جبارة بمعابد فخمة عظيمة

ثانياً ـ اعتزاز العربى بآدابه

إن العرب كانوا يعتزون بآدابهم ، ويفاخرون بها ، معتقدين أنها متفوقة على باقى الآداب الأخري . فلم يعتنوا بدرس تلك الآداب ، ولم يترجموا غير القليل منها ، بل انهم وجهوا اهتمامهم إلى ترجمة الكتب العلمية والفلسفيه من اليونانيه والفارسيه

وليس اعتزازهم بآدابهم وحده هو الذى منعهم من ترجمة روائع الكتب الأدبية من لأدب الفارسى واليونانى ، بل لأنهم وجدوا هذه الآداب تزخر بالأساطير ، أساطير الآلهة ، فلم يقربوها خشية أن يكون لها تأثير سيء على عقائد الناس . كذلك أهملوا كثيراً من الفنون الجميلة إذ وجدوا فيها ما يذكرهم بأصنام الجاهلية التى عمل الاسلام على محوها . ومن ثم لم نجد للتمثيل والتصوير والنحت أثراً يذكر فى الفنون والآداب العربية . أما الموسيقى ، وهى الفن الذي لم يكن

يخشى منه على العقيدة الدينية ، فقد رأيناه يتبوأ مكانة عالية فى أثناء ازدهار المدنية الاسلامية . فبعد أن كان فى الجاهلية نوعا من أنواع الحداء ، رأيناه فى الدولة العباسية فناً قائماً بذاته مصبوغاً بالصبغة العربية ، له أصول مقررة ومذاهب متعددة ، فضلا عن آلات الطرب العديدة التى برع فى استعمالها المغنون ، وجلها - إن لم يكن كلها - مأخوذ عن الفرس ، وحسبك أن تعرف أن كتاباً كبيراً من أعظم كتب الأدب العربى ألفه صاحبه عن « الأغانى » ذكر فيه الشعر الذى كان مادة للغناء ، وضبط الألحان التى كان يغنى بها هذا الشعر ، ولكن ظلت الموسيقى العربية بالرغم من ذلك كله بسيطة ساذجة كالنفس العربية لا تعبر عن مختلف خوالج النفس الانسانية ، وهذه السذاجة ظاهرة طبيعية نلمسها فى جميع الفنون الجميلة العربية ، يدلنا على ذلك فن العمارة الاسلامية ، فقد استمد أصولا أولاً من الفنين البيزنطى والفارسى ، واستطاع فيما بعد أن يستقل بنفسه ، ويوجد له طابعاً خاصاً به . ولكنه ظل فناً بسيطا قوامه الزخرفة الهندسية

والآن نريد أن نتحدث عن أشهر القصص العربية ، ولنبدأ بالقصص الغرامية فى عصر بنى أمية :

تعتبر هذه القصص أحد أركان الفن القصصى العربى ، وهى - بالرغم مما فيها من خلط فى التاريخ ومغالاة فى الوصف ، ونقص فى التأليف - تحتوى شيئًا من مقومات القصة الفنية

وأهم هذه القصص ثلاث : مجنون ليلى ، وجميل بثينه ، وقيس لبنى ، وأبطالها مذكورون فى التاريخ ، ولكن منهم من اختلف فيه كالمجنون « قيس بن الملوح » فقد اختلف المؤرخون فى شخصيته اختلافا كبيراً يدعونا إلى الشك فى وجوده ، أما جميل بن معمر - جميل بثينه - وقيس بن ذريح - قيس لبنى - فليس هناك ما يدعو الى الشك فى وجودهما وان كنا ننكر شخصيتيهما على المثل الذى رسمه لنا المؤلفون ، ويلاحظ أن هذه القصص الثلاث قد اشتقت من ينبوع واحد هو ينبوع البادية وعالجت موضوعا واحداً هو الحب العذرى ، فبطلها دائماً بدوى يعيش عيشة الفطرة ، ويتحلى بصفات كريمة منها الكرم والشمم والعفة والشهامة ، وكل هذه الصفات موطنها البادية ، أما حبه فحب عفيف طاهر ، ملك قلبه وعقله ، محفوف بالمصاعب والتضحيات ، وتكاد تشترك القصص الثلاث فى الحوادث نفسها التى بنيت عليها القصة ، فهناك حب مبرح بين اثنين ، ثم ظروف قاهرة تحتم عليهما الفرقة ، ثم موت كموت الشهداء ، ولكن هناك بعض الاختلاف فى التفاصيل ، وخصوصا فى قصة قيس لبنى التى يمكننا أن نعتبرها أقرب القصص الثلاث الى الفن الصحيح ، فقد عالج فيها مؤلفها أو مؤلفوها موضوع الغيرة ، غيرة الأم من زوج ابنها

أما ظهور هذه القصص فى عصر واحد ، وعلى النمط الذى ذكرناه آنفا ، فيعود إلى ما يأتى : —

ينقسم سكان الحجاز إلى قسمين : قسم يسكن البادية ، وقسم يسكن الحضر ، وقد نافس الحجازيون أمراء بنى أمية وحاربوهم ، وكادوا يقوضون ملكهم ، ولكن شاءت الأقدار أن يستتب الأمر فى النهاية لمعاوية وخلفائه ، فعاد أهل الحجاز إلي موطنهم ، واستقروا فيه ، واعتزلوا ـ مضطرين ـ حياة الكفاح والسياسة ، فمن كان منهم من أهل البادية ، عاش عيشة السذاجة والفقر ، ولكن قلبه كان عامراً بالايمان الصحيح ، ومتى اجتمع الفقر والايمان والفراغ نشأ الزهد والتصوف فرأينا موجة الصوفية تعم بادية الحجاز . وأخذ الشعراء منهم يعبرون عن احساسهم بأشعار غزلية كلها مثل عاليا فى الطهر والعفاف والتضحية ، وأخذت تحاك حول هذا الشعر أنواع من القصص أبطالها مزيج من الحقيقة والخيال ، ومن ثم ظهرت قصة المجنون وماماثلها

ولا يمكننا أن نغفل بجانب هذا النوع من قصص الحب العذرى نوعا آخر ـ ولكنه أقل أهمية من سابقه ـ هو قصص الحب الخليع ، وامام هذا الفرع عمر بن أبي ربيعة الشاعر ، مبدع الأدب المكشوف فى ذلك العصر . والسبب فى ظهوره يعود الى حياة الترف والغنى مجتمعة مع حياة البطالة الاضطرارية التى كان يحياها أهل الحضر من زعماء الحجازيين وأمرائهم ، وكان الأمويون فى ذلك يتبعون مع هؤلاء الزعماء سياسة المال ، فكانوا يغدقون عليهم العطايا ، ويقررون لهم المرتبات ضخمة . ولكنهم كانوا بجانب ذلك يحرمون عليهم الاشتغال بالسياسة ، ويبعدونهم عن مناصب الدولة ، وكانت السبايا من الفارسيات والروميات والتركيات وما ماثلهن ، قد ملأن بيوت هؤلاء الأمراء الحضريين من سكان الحجاز على أثر الفتوحات العظيمة التى تمت فى سرعة تدعو الى الذهول فانتقل هؤلاء السبايا ـ وكان معظمهم من البيوتات الكبيرة ـ الشيء الكثير من مدنية الأمم المحكومة ، فاجتمع عند أهل الحضر من الحجازيين الثراء والترف والمرأة مع البطالة الاضطرارية ، فنتج عن ذلك الاسراف فى اللهو ، ومن ثم جاء الأدب المكشوف صورة لهذه البيئة الجديدة

ننتقل من ذلك الى نوع آخر من الادب القصصى ، يسمى قصص الحرب والبطولة ، أو قصص العوام . ومنها عنترة ، والزير سالم ، وبنى هلال ، والبطال «القصة المعروفة بالأميرة ذات الهمة» والبراق التى منها حرب البسوس ، وسيف بن ذى يزن وفيروزشاه ، وما ماثلها

وقد سميت بقصص الحرب والبطولة ، لانها تروي لنا بعض وقائع الحرب فى العهد الجاهلى وما يليه ، وتتحدث لنا عن شخصيات اشتهرت بالبطولة فى الحروب كعنترة . أما تسميتها بقصص

العوام فلأنها اشتهرت بين العامة أكثر من انتشارها بين الخاصة . أو بالأحري لأنها كتبت للعامة

وهى قصص تعتمد فى هيكلها على حوادث التاريخ ، ولكنها مشحونة بالاغلاط التاريخية التى لا يقبلها العقل السليم . أما نشأة هذه القصص فهى نشأة طبيعية بحتة ، فان الناس فى كل أمة يحبون البطولة والحرب ، يروون وقائعها مفتخرين بما حازوه من نصر فيها ممجدين أبطالها . وكانت حياة العربى حياة نزاع وحرب فقبائله دائما فى شجار وأخبار بطولته يزخر بها تاريخه . ومن ثم أخذ الرواة يروون للناس هذه الحوادث التاريخية ثم يضيفون اليها من عندهم ما أرادوا . وأخذت القصص تحاك حول هذه الاخبار شيئا فشيئا الى أن انتهت الى الحالة التى هى عليها الآن

وأشهر هذه القصص عنترة ، وقد عنى بها الافرنج فصاغ منها أحدهم رواية قصصية بالفرنسية ، وهى طبعاً غير الرواية التمثيلية التى ألفها نظما بالفرنسية الأديب السورى شكرى غانم ومثلت على المسارح الفرنسية ونالت صيتاً بعيداً

وقصة عنترة العربية أرق من أخواتها لغة وشعراً . تصور حياة العربى فى العهد الجاهلى وتروى لنا شيئا من حروبه وما امتاز فيها من أبطال . وتصف لنا شجاعته وكرمه وحبه ووفاءه وتضحيته والقصة من الوجهة التاريخية غير موثوق بها . ففيها كثير من الخلط والغلط ، وهى فوق ذلك مفككة الحوادث ، لارابطة تربط بعضها ببعض . ولكن نرى فيها بجانب ذلك بعض مواقف روائية رائعة . منها الموقف الذى يموت فيه عنترة بسهم مسموم . فعند مايشعر بدنو منيته ويخشى على جيشه الهزيمة يسرع الى جواده فيمتطيه ويعتمد على رمحه ثم يموت . ويراه العدو من بعيد وهو ممتط فرسه معتمد على رمحه فيظنه حياً يدير رحى القتال فيرهبه ولايجسر على الدنو منه

والآن ننتقل الى قسم آخر من القصص الموضوعة ، ونسميه بالقصص العلمية والفلسفية . وهو ليس قصصاً بالمعنى المعروف لأن النزعة العلمية تسوده . فالغرض الذي رمى اليه المؤلف فى كتابة هذه القصص هو عرض فكرته الفلسفية أو نظريته العلمية . ومن ثم كانت الصياغة القصصية فى المرتبة الثانية . وجميع هذه الكتب ألفت بلغة سليمة فمؤلفوها من العلماء ، وقد كتبوها للخاصة من الناس . وأشهر هذه القصص : قصة حى بن يقظان ، والانسان والحيوان ، والصادح والباغم ، ورسالة الغفران ، والمقامات

فحى بن يقظان ـ وهو لابن طفيل ـ أظهر فيه مؤلفه شخصية عجيبة هى أقرب الشخصيات الى « طرزان » فهو ابن الغابة وربيبها . عاش على الفطرة وأخذ العلم من الطبيعة . والطريف فى هذه القصة تلك النظريات العلمية التى وفق حى بن يقظان الى اكتشافها فى التشريح وغيره ولا يستبعد

أن يكون ديفو مؤلف روبنسون كروزو قد تأثر بفكرة مؤلفنا العربى ، فنسج على طريقته فى وصف الحياة الفطرية

أما كتاب الانسان والحيوان فقد ألفه « اخوان الصفا » فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وجعلوه ذيلا لرسائلهم المشهورة وهو يحوى مناظرات بين الحيوان والانسان وقد حذا فيه مؤلفوه حذو كليلة ودمنة فى وضع الحكمة على ألسنة الحيوان ولكنهم لم يقتصروا على الحكمة بل خاضوا فى العلوم الطبيعية وتكلموا عن مميزات الانسان والحيوان . والكتاب يمتاز بتلك الصبغة العلمية الواضحة . تلك الصبغة التى اشتهر بها الاخوان فى رسائلهم

أما كتاب الصادح والباغم فهو يماثل قصص لافونتين الفرنسى ، وقد قال عنه صاحب كشف الظنون « انه منظومة على أسلوب كليلة ودمنة فى ألفى بيت لابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هجرية فيه قصائد وأراجيز » والظاهر أن كتاب كليلة ودمنة قد ترك أثراً بعيد المدى فى الأدب العربى ، فقد نقله كتاب كثيرون غير ابن المقفع . ونظمه عدة شعراء من بينهم ابن الهبارية نفسه فى كتاب سماه نتائج الفطنة فى كتاب كليلة ودمنة . ثم نحا نحوه فى كتابه الذي نحن الآن بصدده . وقد رأينا كيف أن اخوان الصفا قد ألفوا كتابهم الانسان والحيوان متأثرين بكليلة ودمنة . ثم جاء ابن عرب شاه المتوفى سنة ٩٠١ هجرية فألف كتابه فاكهة الخلفاء . نحا فيه أيضا نحو كليلة ودمنة فى كثير من قصصه . نذكر ذلك لنبين الى أى حد تأثرت قصصنا العربية الموضوعة التى عنيت بالحكمة والفلسفة والعلم بكتاب كليلة ودمنة ، وهو من الكتب المنقولة عن الأدب الهندى

والآن نريد أن نتحدث عن المقامات :

حينما اتسعت المملكة الاسلامية على أثر الفتوحات ، ودخلت فى الأمة العربية أجناس مختلفة أخذ الدخيل من الكلمات والاصطلاحات يغير على اللغة الفصحى ، فخاف جماعة اللغويين والنحاة أن يصيب اللغة الوهن والفساد . فقاموا ينبهون الناس الى الخطأ ويرشدونهم الى الصواب ، وبدأ الكتاب يحسون بضعفهم أمام هجمات اللغات العامية ، فحرصوا جهدهم أن يكتبوا صحيحا واندفعوا ينتقون الكلمات انتقاء ويتخيرون الأساليب تخيراً . وتمادوا فى ذلك كثيراً وقامت المنافسة بينهم كل كاتب يريد أن يتفوق على زميله فى الانشاء ، فاهتموا بالعرض دون الجوهر . ومن هنا شاعت المحسنات اللفظية ، وظهرت قواعد جديدة فى البلاغة تعتمد على التزويق والبرقشة أكثر من اعتمادها على الفكرة وغالى الكتاب فى السجع ، حتى أصبح كل مايكتبونه مسجوعا . وتعمقوا الألفاظ المهجورة والأساليب الغريبة ليؤثروا بها على القراء ويظهروا لهم مبلغ تضلعهم فى اللغة . فى ذلك الجو نشأت المقامات ، وهى شبه أقاصيص يتخذ لها المؤلف بطلا وهمياً يروى على لسانه ماشاهده من حوادث وما سمعه من أخبار . والمقامة ليس لها أي قيمة قصصية ، وان كانت وضعت فى القالب

القصصي ، لانها خلت من أهم مميزات القصة وهو الحادثة أو العقدة . كذلك خلت من الشخصيات الروائية الممتازة وتحليل نفسياتها . ودرس أخلاقها . والغرض الذى رمى اليه مؤلف المقامة هو عرض الموعظة أو النكتة المستملحة والألغاز اللغوية والنحوية ، كل ذلك فى لغة ألفاظها جزلة غريبة ، وأسلوب كله مسجع . وقد نشأ هذا الفن الجديد من اتصال العرب بالفرس ، وتأثرهم بحضارتهم التى شملت فيما شملته الآداب . وأول من برع فى كتابة المقامات بديع الزمان الهمذانى « المتوفى سنة ٣٩٨ ﻫ» ثم اشتهر بعده الحريرى « المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ » ثم الزمخشرى « المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ » . وانتشر هذا النوع انتشاراً كبيراً حتى كان لكتابنا العصريين أثر كبير فيه. فقد كتب الشيخ ناصيف اليازجى « المتوفى عام ١٨٧١ م » كتابه مجمع البحرين ، وهو مجموعة مقامات على نسق مقامات الحريري والهمذانى . وكتب احمد فارس الشدياق كتابه الفارياق وهو متأثر بجو المقامة تأثراً عظيما . وظهر فى العصر المتأخر كتابا عيسى بن هشام لمحمد المويلحى وليالى سطيح لحافظ ابراهيم وهما على نمط المقامات ، ولكن الأول تفوق على سواه من الكتب المقامية ، إذ خرج فيه عن جو المقامة واقترب من القصة الفنية بما عالجه فيه من شخصيات وأوصاف وحوادث

أما رسالة الغفران للمعرى . فلا يبعد أن يكون مؤلفها قد كتبها متأثراً بجو المقامة . فقد توفى المعرى سنة ٤٤٩ ﻫ أي بعد وفاة الهمذانى باحدى وخمسين سنة . ورسالة الغفران تفضل المقامات بمميزات عدة ، ولعل ذلك عائد إلى أن المقامة قد تمكنت من فكر المعرى واستقرت فيه ، ولكنه تمثلها وأخرجها صورة أخرى حية ناضجة . وفى الرسالة كثير من السجع ، والأشعار العويصة المعانى الغريبة الألفاظ ، وفيها نقد لشعراء الجاهلية والاسلام وأدبائهما وفيها ذكر للرواة والنحاة . وفيها أيضاً تصوير للمجتمع العربى فى مختلف عصوره . والشىء الكثير من هذا هو من موضوعات المقامة ، ولكن المعري عالجها فى طريقة مبتكرة . أما ما امتاز به فى رسالته وتفوق به على المقامة تفوقاً محسوساً فذلك هو خياله الخصب الواسع من جهة ، وسخريته اللاذعة الخفية من جهة أخري . فأى خيال أكبر من ذلك الذى يصور لنا الجحيم والجنة وما فيهما من عذاب ونعيم تصويراً رائعاً يملك على القاريء لبه . أما سخريته فى هذه الرسالة فقريبة الشبه بسخرية أناتول فرانس القصصى الفرنسى الشهير ، فكلاهما تهكم لاذع لايشعر به إلا من قرأ مابين السطور . ورسالة الغفران قصة تخيل فيها المعرى ذهاب رجل إلى الجنة ورؤيته لجهنم ، وما شاهده فيهما من شعراء وأدباء ، وما جرى بينه وبينهم من محاورات فى الأدب والشعر واللغة ، وما قابله فى الجنة من أناس لم يكن ينتظر نزولهم بها فسألهم . بم غفر الله لهم ؟ فذكروا له فيما ذكروا أشعاراً قالوها فغفر الله لهم من أجلها ، وكانت جوازهم إلى دار النعيم ، لذلك سميت رسالة الغفران . وقد ذكرنا قبل تماثل الفكرة بين

رسالة المعرى وكوميدية دانتى الالهية ، واحتمال تأثر الأخيرة بالأولى ، كذلك يوجد تشابه بين موضوع المعرى وقصيدة ملتن الشاعر الانجليزى ، المسماة « بالفردوس المفقود» . وبهذه المناسبة نذكر أنه على أثر ازدياد صلة الغرب بالشرق تأثر الأدب الغربى بأدب العرب ، وخصوصاً بكتابى ألف ليلة وكليلة ودمنة . فأقاصيص هانس اندرسن الدنمركى . ورحلات جلفر لسويفت الانجليزى، وسياحات جيل بلاس للوساج الفرنسى ، وكتاب الغابه لروديارد كبلنغ ، كلها تحمل شيئاً من روح القصة العربية

والآن وقد انتهينا من القصص العربية الموضوعة سنتحدث عن القصص العربية المترجمة .

وأهمها اثنتان . ألف ليلة ، وكليلة ودمنة

أما كتاب ألف ليلة فيحتوى على ثلاث مجموعات مختلفة . المجموعة الأولى . كتاب ألف خرافة الفارسى المسمى «هزار أفسانه » ، وهو مجموعة قصص خرافية فارسية وهندية . وهذه المجموعة لحقها كثير من التغيير على يد النقلة والرواة ، نخرجت عن أصلها . والمجموعة الثانية . قصص كتبها على نمط القصص السابقة مؤلفون من العرب ، بعضهم من بغداد والآخرون من مصر . وقد اشترك بعض اليهود فى تأليف هذه المجموعة . والمجموعة الثالثة . ماجمعه أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب ، من حكايات ونوادر للعرب والفرس والروم كانت تروى فى حفلات السمر والمنادمة

هذه المجموعات الثلاث قد انصهرت فى بوتقة الزمن ، وعلى يد النقلة والرواة ، حتى وصلت الينا فى كتاب واحد يكاد يكون له طابع واحد ، هو كتاب ألف ليلة . ولكن الناقد الخبير ، والباحث المدقق ، والمحلل اليقظ ، يستطيع أن يرجع كل قصة فى الكتاب إلى أصلها. ولدينا وسيلتان تعيناننا فى هذا العمل . هما . الاسلوب ، والخيال . فالقصص ذات الأسلوب العربى الفصيح تدلنا على أنها كتبت فى العصر الأول . حينما كانت اللغة خالية من شوائب العجمة . والقصص ذات الاسلوب الركيك ، تدلنا على العصر الذي كتبت فيه بعد ، فهناك الخيال الفارسى، والخيال اليهودي، والخيال العربى الصميم ، وهلم جرا . ويلاحظ أن القصص الاسلامية الصرفة خالية من الخرافة . وهذا يؤيد النظرية التى أوردناها فى أول حديثنا ، وهى أن الأمة العربية لم تكن أمة أساطير

والكتاب من الناحية القصصية يعتبر من كتب القصص العالمية . وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية . وهو فخر الأدب القصصى العربى بلا مراء ، وأكثر قصصه مفعمة بالاخطار والأسرار ، مملوءة بالمشوقات ، لايشعر القارىء لها بملل . وشهرتها العالمية تعود إلى عاملين هامين ، هما . سعة الخيال وقوته ، وبراعة الوصف فى رسم الشخصيات والبيئة . فنحن نشعر ونحن نقرؤها أننا نعيش

حقاً فى تلك البيئه الشرقية الاسلامية ذات السحر العجيب ، نعاشر أهلها ونستمتع بأحلامها

أما كتاب كليلة ودمنة ، فقد ترجمه عن الفارسية الكاتب عبدالله بن المقفع فى أسلوب من أبلغ الاساليب ، والكتاب أصله هندى وضعه بيدبا الفيلسوف رغبة منه فى اصلاح الملك دبشليم العاهل المستبد ، وجعل أقاصيصه على ألسنة الطيور والحيوان ، لاعتقاد البراهمة القديم بتناسخ الارواح . ورمى فيه الى بث الموعظة والحكمة ، والحث على الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة

* * *

بهذا نختم حديثنا عن القصة العربية فى العهد القديم ، وليس أمامنا إلا كلمة عن القصة المصرية فى العهد الحديث

ليس من السهل أن يتصدى الناقد لمعالجة هذا الموضوع ، فالحكم على الزمن القريب محفوف دائما بالريبة وان حسن فيه القصد ، إذ أن للبيئة التى نحيا فيها تأثيراً علينا يكاد يعمى بصائرنا عن إدراك الحقيقة . فالعهد الحديث يجب أن يترك لنقاد المستقبل يدرسونه فى تؤدة وروية ، وفى جو صالح يساعد على استجلاء الحقائق وتفهمها تفهما نزيها . ولكن هذا لايمنعنا من أن نلقى بكلمة عابرة فى هذا الموضوع ، نستكمل بها حديثنا ، فنقول

القصة المصرية لايزيد عمرها عن الثلاثين عاما أو الأربعين ، فهى إذاً مازالت طفلة تحبو ، وميراثها ميراث ضئيل ، لايعتد به اذا قارناه بتلك الثروة الضخمة التى ورثتها القصة الغربية الحديثة عن آدابها فى القرون الخالية . والقصة المصرية لها ثلاث مراحل ، أو ثلاثة عهود . العهد الاول . عهد خضوع القصة لنفوذ الادب العربى القديم . والثانى . العهد الذى حاولت فيه القصة التحرر من نفوذ الأدب العربى القديم والاتجاه نحو الأدب الغربى . والعهد الثالث : عهدنا الحاضر ، وهو عهد خضوع القصة للأدب الغربى .

فالعهد الأول وقع فى أواخر عصر النهضة أو عصر إحياء اللغة العربية . وهو العصر الذي بدأه العاهلان العظيمان محمد على واسماعيل . وقد جاء هذا العصر بعد احقاب طويلة مظلمة عانت فيها اللغة ضعفا وهوانا بالغين . وقد ظهرت المطبعة فى مصر قبل محمد على بقليل على يد البعثة الفرنسية وقت الاحتلال الفرنسى . فكان لها شأن يذكر إبان عصر الاحياء ، فانتشرت بواسطتها أمهات الكتب القديمة التى تداولتها الأيدى وأقبلت عليها النفوس الظامئة فى شغف عظيم ، فكانت نتيجة ذلك أن ظهر أدب جديد ، أدب حى ، له كثير من مظاهر الاستقلال الذاتى . ولكنه كان مع ذلك خاضعا فى الحقيقة للنفوذ العربى القديم ، وأئمة هذا العصر هم البارودى والبكرى والمويلحى ومن شابههم وكان أخيرهم ـ المويلحى ـ أول من فكر فى القصة المصرية الحديثة ، فألف كتاب حديث عيسى ابن هشام . وبالرغم من تضلع المويلحى فى بعض اللغات الأوربية وقيامه ببعض السياحات الهامة

فى اوربا ، فقد ظلت ثقافته عربية صميمة ، ولكننا نظلم المويلحى ونظلم عصره إذا جردناها تجريداً تاما من النفوذ الغربى ، فقد عملت البعوث العلمية عملها فى تقريب الثقافة الأوربية الينا ، ولكن تأثر الأدب بها ظل ضعيفا . فلما أخذ المويلحى يؤلف كتابه ، وجه نفسه شطر المقامة فنسج على منوالها ، إلا أن كتابه بز المقامة وتفوق عليها بمراحل كبيرة ، وان ظل دائما فى روحه « مقاميا » . لم يعن المويلحى فى كتابه بالقصة كما يجب أن تكون ، فلم يجعل لها وحدة مستقلة مترابطة الحوادث ، لها عقدة يصوغ موضوعه عليها . بل اهتم بالجانب الاستعراضى ، فأخذ يستعرض المناظر ، وينقد الأخلاق فى فكاهة مستحبة ، وأسلوب جذاب ، يفسده بعض الفساد قليل من السجع . ولعل أكبر معجزات هذا الكتاب أنه كان يعبر عن الذهنية المصرية فى ذلك العهد . ويعود هذا طبعا الى أن الشعور بالقومية المصرية كان قد بدأ يستيقظ . تجىء بعد ذلك المرحلة الثانية فى تطور القصة المصرية الحديثة ، وهى المرحلة التى بدأت فيها القصة بالخروج من الدائرة التى رسمها لها الأدب العربى القديم ، وكان ذلك على أثر ازدياد اتصالنا بثقافة أوربا ، وازدياد هذا الاتصال يعود الى امرين ، الأول : مركز مصر السياسى ، والثانى : ايماننا بحاجتنا الى المدنية الأوربية التى اعتبرناها مثلا للتقدم والنجاح ، وكان على أثر هذا الاتصال المتزايد أن أخذ بعض أدبائنا ممن أتموا دراستهم فى اوربا وتشبعوا بالأدب الغربى يحاول التحرر من سيطرة النفوذ العربى العميم ، محتذيا فى ذلك الأدب الغربى . وكانت باكورة تلك الجهود ظهور رواية « زينب » للدكتور هيكل ، وهى أول قصه مصرية توافرت فيها عناصر القصه الفنية

والى هنا تنتهى المرحلة الثانية ، وتبدأ المرحلة الثالثة حينما أخذت موجه الغرب تطغى وتتزايد فرأى القاص المصرى لزاما عليه أن يدرس القصص الغربى ويتعمق فى درسه ، ليضمن لنفسه التفوق والنجاح فى فنه ، ولم يكن فى ذلك بمخطىء ، بل انه سار فى الطريق الطبيعى . فالقصة الغربيه بلغت فى وقتنا هذا ارفع منزلة ، ووسع ميدانها أعمق الابحاث وأخطرها . واكتسب قصاصوها عن جدارة وحق أكبر الالقاب . فصارت بطبيعه الحال الهدف الذى نرمى اليه ، والمعين الذى نستقى منه . وعاشت القصة فى هذه البيئه لا تتنسم إلا نسيم أوربا . فاختنقت به وكادت تتنكر لمواطنيها ، وأصبحت فى شكلها كالاوربى الذى يأتى الى الشرق ليرتدى الجبه والقفطان والعمامة ويسير فى أروقه الأزهر ، وهو يعتقد انه انقلب الى شرقى صميم . ونسينا أن عملية الهضم وتمثيل الغذاء ذلك الغذاء الأوربى الدسم خلاصة القرون الماضية يتطلب أعواما وأعواما حتى يتحول الى دم صالح يجرى فى عروقنا ، دم مصري يغذى عقولنا . ومن ثم نستطيع التعبير فى عقلية مصرية خالصة ، فهل دنا هذا الوقت؟ لا مراء فى أننا على عتبة هذا العصر الجديد

وحسبنا أن يظهر فينا مثل طه حسين بكتابه الأيام ، وتوفيق الحكيم بأهل الكهف وعودة الروح حتى نعلم أن القصة اليوم تجارى سائر النهضات الأخرى ، فأخذت تتخلص من النفوذ الاوربى . وتظهر لأبناء وطنها مستقلة تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى

أنتون تشيكوف

للاستاذ حسن حبشي

ربما كان أنتون تشيكوف أبرز الادباء الروسيين فى القصة الصغيرة ، فقد ترك مجموعة ضخمة ، تقع فى ثلاثة عشر مجلدا ، مابين قصة أو رواية مسرحية ، تتراءى لك فى كلتيهما الحبكة الفنية ، وبراعة القصاص الماهر فى استكشاف الجوانب الدقيقة من الحياة الانسانية والاجتماعية المختلفة ، وتصويرها تصويرا جليا لايدع مجالا للشك فى نفس مطالعها بأنها واقعية ، وأنه يشترك فيها بعواطفه واحساساته وخيالاته ، ولعل هذه البساطة المتناهية هى السر فى رواج أدب تشيكوف ، فهو أدب يرفع لك الستار عن نواح خفية ، من الطبيعة البشرية ، فيها متعة ولذة ، وفيها ألم وتعب ، وفيها فكاهة مريرة ، ودمعة تتخللها ابتسامة ، وعلى العموم فهى قصة الحياة اليومية التى ستظل حية ، مادامت العواطف الانسانية باقية ، ولن تفنى هذه العاطفة ، كما أنها لن تخمد فى الجنس البشرى ، بل هى أبرز مميزاته وأوضح صفاته

لم يعمر تشيكوف فى الحياة طويلا ، ولكنه بالرغم من ذلك ترك ثروة أدبية ، هى مورد ضخم لمن يريد أن يعرف الحياة من الكتاب ، وهو اليوم يتمتع بالشهرة ميتا ، أكثر من تمتعه بها حيا ، وليست هذه الشهرة محلية فحسب ، بل هي عالمية ، فأنك تستطيع أن تقرأ عن تشيكوف فى لغة أى أمة ، وتستطيع أن تجد الدراسات عنه فى أى لسان ، وتستطيع فوق هذا وذلك أن تجلس الى من يسرد عليك الكثير الممتع من قصص تشيكوف ... ذلك تشيكوف الذى له الاثر الأكبر فى القصة ، وبالتالى فى النثر الروسى ، والذى يعده الكاتب « جانكولافرين » أول فنان وضع أسسا ثابتة ودعائم قوية للقصة الروسية » وبالرغم من محاولاته فى الدرامة Play فانها لاتعادل قصته الصغيرة من الناحية الفنية ، وما كتب هذه الروايات المسرحية « كمجموعة الاخوات الثلاث . وروايات أخرى » ألا ليكون له فى كل ضرب سهم ، ولكننا نعتقد أنها كانت محاولات غير ممكنة ! ويقول مستر وليام ليون فيلبس : ص ٢٣٥ « ان الدرامة الروسية ، لاتقارن بالقصة ، وأنى لم أقرأ رواية تمثيليةقوية البناء ، سوى رواية « المدير » اذأن معظم ما كتبوه فى هذه الناحية ،

لاتهضمه طبيعة الاجنبي ، بل تتركه باردا ». ولكن يقول مستر بارنج : « ان روايات تشيكوف التمثيلية تكون ممتعة مجدية مبهجة لا للقارىء فقط بل فى تمثيلها على خشبة المسرح »

ولا شك أن مستر بارنج كان موفقا فى الاشارة الى هذه الناحية ، من أدب تشيكوف ، لأن لاختلاف الامزجه أثرا كبيرا ، فى تقبل أو فرض المعروض أمام الشخص ، ويستشهد صاحب كتاب « دراسات عن القصصيين الروس » أن مدام نازيموفا قالت · أن تشيكوف هو أحب القصصيين اليها وأقربهم الى نفسها ، أما رواياته التمثيلية فمن الصعب أن يقبل عليها جمهور الامريكيين مالم تجد الممثل البارع جدا

ومهما يكن الامر فان ذلك لا يضير تشيكوف ، الذى خلف لعشاق الادب هذه الثروة القصصية الهائلة ، والتى جعلته من أكبر قواد الادب الروسى فى العالم المتمدين ، وقد مات فى المانيا وهو لم يجاوز الرابعة والاربعين من عمره ، الذى اشتغل كل لحظة فيه لأن يكون زعيم القصة ، ولابد لنا أن نشير هنا ، الي أن تشيكوف فى صغره ، دخل كلية الطب فى جامعة موسكو ويقول هو عن ذلك : « ولست أذكر جيدا ، لماذا آثرت كلية الطب ؟ ولكنى على كل حال ، لم آسف مطلقا على هذا الاختيار » وفي هذه المدة التى قضاها طالبا يتلقى العلم ابتدأ يكتب بوضع موضوعات للتسلية ، ولكنه كرس حياته بعد ذلك ، لخدمة الادب الرفيع ، واستغل مواهبه في اخراج القصة الروسية الحديثة ، وقد كان لتعلمه الطب أثر كبير فى أدبه ، ذلك أنه كان يعمد الى مراقبة أخلاق المرضى وطبائعهم ، وتعرف ماعندهم من الشذوذ ، ولاشك أن مثل هذا العمل يوقف المرء على النفسية البشرية ، فى اطوارها المختلفة ، وظروفها المتباينة ، وكان هو يستخدم ذلك لتغذية موضوع قصصه ، ولذلك نرى التحليل السيكولوجى ، يغلب فى بعض ما كتبه وخاصة فى رواية «الاخوات الثلاث» وايفانوف ، واذ بلغ السابعة والعشرين من عمره أخرج للناس مجموعة تحوى ما نشره من القصص الفكاهية ، ولكن البعض أخذ يقرعه ويعاتبه معاتبة شديدة ، ولذلك انصرف الى تصوير الاشجان ، وصبغ قصصه صبغة حزينه ، وان لم تبلغ فى قوتها من هذه الناحية مابلغته قصص دستوفسكى ، او قل أن كلا منهما كانت له وجهة خاصه ، فبينما دستوفسكى يعمد الى تصوير الآلام فى صورة قوية ، اذا بتشيكوف ، يحوم حول الموضوع وهذا واضح فى قصة « الرهان »

وفى قصة « الشهرة » أيضاً مثال لهذه الناحية فى أدب تشيكوف فهو يرفع الستار لنا فيها عن

شاب يتقد ذكاء ، وقد جلس قبالته رجل تبدو عليه سيماء الجلال والمهابة فى إحدي عربات الدرجه الأولى بالسكة الحديدية ، ويأخذ الأول فى التحدث عن نفسه وأعماله الهندسية الجليلة ، ويندد بالناس لأنهم لم يذكروه بكلمة ، بينما ظلوا وظلت الصحف تلهج باسم ممثلة ، وتنثر الرياحين تحت قدميها وهكذا نالت شهرة فائقة على حين هو ظل مجهولا ، وتنتهي القصة بأن يعرف الشاب أن الجالس أمامه أستاذ وعالم فى جامعة ولكنه لم ينل شيئاً من الشهرة

وقصص تشيكوف تمتاز بميزة تعرف بها من قصص غيره ، ذلك أنها عقلية أكثر منها عاطفية ، فالعقل يتلقاها قبل أن تصل الى العاطفة ، وهي تبعثك على التفكير القوى والاحساس العميق معاً ، ويقول عنه تولستوى . « أن تشيكوف يشبه تماما جي دي موبوسان » غير أن مسترو ليام فيلبس ينفى جانباً من هذه الفكرة ، إذ يقول . « أن تشيكوف يشبه موباسان ، فى أنه كتب كثيراً من القصص الصغيرة »

وتستطيع حين قراءتك لقصصه أن تلمس الطبيعة والخلق الروسيين واضحين فى غير تعمل وذلك لتأثره العلمى ، الذى جعله يميل أحيانا ، للافصاح الساذج ، وبسط شخصية أبطاله ، وهذا واضح فى كثير من رواياته وقصصه ، كما يتضح ذلك فى قصته المسماة « « On the Way » » حيث يقول على لسان البطل « لقد أوجدت الطبيعة فى كل شخص روسى ، عقلا دائم التساؤل ، وميلا للتأمل ، ومقدرة خارقة فى الاعتقاد ، ولكن كل هذه سرعان ماتتحطم بدداً ، وتتلاشى فى التراب ، أزاء غفلتنا وتراخينا » ومن هذه العبارة نستطيع أن نعرف ماهية الطبيعة الروسية ، وقد كتب أحد النقاد عنه ، فقال . « لقد كان تشيكوف طبيباً ، ورجلا أفكاره عبث ، فانه يرى الامراض حيث توجد وحيث لاتوجد ، ولذلك تدين قصصه إلى هذه الناحية ، بشيء كثير مما فيها من التصوير والتحليل » وقد نستطيع من روايته « الحارس رقم ٦ » أن نتعرف إلي الشخصية الروسية ، فهو يميط لنا اللثام عن مستشفى الامراض العقلية ، ويرينا كما يقول عنها ماساريك « أن بعض أجزاء من روسيا لم ترق خطوة واحدة ، ولم تزل كما وصفها لنا جوجول فى قصة « المدير » إذا كان ماجاء به تشيكوف حقاً » ذلك أن الحارس يعامل المرضى ، معاملة وحشية لا أثر فيها للرحمة ، أو العدل الانسانى ، الواجب عليه اتخاذه أزاء هؤلاء المنكوبين ، فتراهم يعيشون فى محيط من العذاب ، وبيئة من القذارة المموجوجة ، أما تشيكوف فيرى هؤلاء ، ويلحظهم بعين الطبيب المقدر عمله ، وما عليه من واجب نحوهم ، ويلمس الشقاء المخيم على المكان ، وتشمئز نفسه من ذلك كل الاشمئزاز

ولكنه لا يملك القوة الكافية أو النفوذ اللازم لتغيير أى شيء من النظم السائدة ، والطرق المتبعة ، وتراه أيضاً فى هذه القصة ، أو ترى بطله . يتعرف إلى مريض يتحدث اليه بضع ساعات ، ويعجب الطبيب بهذا المريض كل الاعجاب ، مما يدعو أصدقاءه لأن يعتقدوا أن بصاحبهم مسا من الجنون ، ويعاملونه معاملة كلها شفقة به ، ورثاء له ، وسخرية منه ، مما يكاد يخرج الرجل العاقل الرزين ، عن دائرة الحلم والعقل الى دائرة الجنون ، وتنتهى القصة ، أو توشك ، حين يدعوه أحد زملائه لزيارة المستشفى لاختبار حالة غريبة شاذة ، وحين يعبران الباب ، ويتوسطان الدار . يدفعون به إلى العنبر رقم ٦ ، ويرى أن أبواب الدار قد أوصدت دونه ، فلا يستطيع الخروج منها إلى الابد ، ويراهم قد هيئوا له فراشا ، ولكن كيف يتسنى له أن يعيش عيشة المجانين ، وهو الرجل الكامل العقل ؟ حينذاك يهيىء تشيكوف ، له سبل النجاة ، ولكن بالموت ؟ اذ لا تكاد تمضى عليه أربعة وعشرون ساعة ، حتى يصبح جثة هامدة لا حراك بها ، بعد أن يجتاز مرحلة وأزمة نفسية عميقة ، وفترة عقلية هائلة ، ومما يلاحظ هنا ، أن القصص الروسية بالاجمال ، تبرع كل البراعة ، فى وصف الموت ورهبته وجلاله :

وقد كان تشيكوف ، كما يقول فيلبس ، « يميل بنوع خاص ، إلى خيال الاطفال وأظهارهم أعقل من آبائهم المدربين فى الحياة ، وذلك واضح فى بعض الاحيان ، كما فى قصته « فى المنزل » حيث يصور الأب ، وهو يؤنب ولده على رسمه الجندى أطول من البيت الذى يقوم بحراسته ، فيجيبه الولد بقوله « إذا طاوعتك يا أبي ورسمت الجندى ، أقصر من المنزل ، فلن تستطيع أن ترى عينيه » وهذا الالتفات بديع ، بل هو وثبة من وثبات الخيال الجرىء

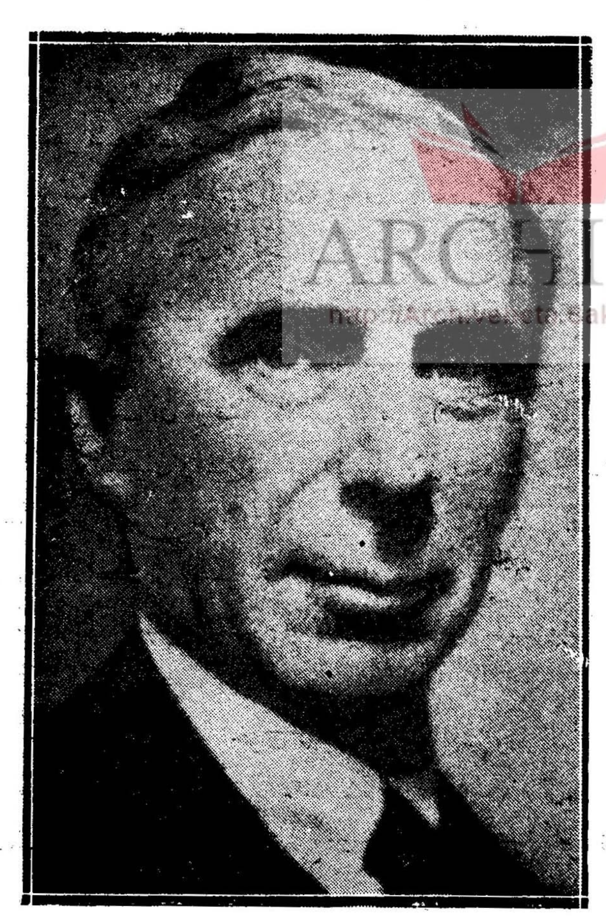
وفى قصة « الراهب الاسود » يصور لنا رجلا كثيراً ما يرى فى النوم شبح قسيس أسود يزوره على أجنحة الاثير ، ويظلان معا ، في محادثة تستغرق عدة ساعات طوال ، ويمده بطائفة من النظريات والآراء ، التى يحاول أن يتبعها زوجه وأبناؤه وأصدقاؤه ، فيحيك الشك فى نفوسهم بأن بصاحبهم لوثة فى عقله ، وبدلا من أن يحذروه من التمادى فى هذه الأفكار ، يعمدون الى ماهو أسوأ نتيجة ، وأردأ عاقبة ، وذلك بأن يوهموه بأنه مريض ويضطروه لتناول الدواء ، وتنتهى حياته بمأساة مفجعة وتنفصل عنه زوجته ، أما هو فيموت

آراء فى التربية

لبرتراند رسل

تمهيـــــد

كثير من الاباء ينظرون الى النظم التعليمية القائمة فيرونها ملأى بالعيوب وهم لذلك يحجمون عن تعريض أبنائهم لمساوئها . وقد يفكر بعضهم فى تربية أبنائهم على يد مربيات أو معلمين فى المنزل ولكن لنظام التربية البيتية عيوباً كثيرة أهمها أنه يحرم الاطفال من الصحاب ويجعلهم يشعرون بالشذوذ عن المجموع . فيضطر الاباء إلى ارسال أبنائهم الى مدارس ملأى بالعيوب دون أن يكون لهم فى ذلك حيلة ، وقد يسهل يسار الاب مهمة اختيار المدرسة لأبنائه أما الطبقة العاملة فتنتظر الاصلاح وهو اصلاح يجب أن يكون نشطاً وشاملا ويجب أن يكون الهدف فيه خير الجماعة وخير الابناء على السواء



برتراند رسل

والتعليم الذى نقترحه لأبنائنا يجب أن يكون متوقفاً على المثل العليا التى نريدها للخلق الانسانى وعلى الدور الذي نأمل منهم أن يقوموا به فى خدمة المجتمع وهناك نظرتان مختلفتان الى الغرض من التعليم : الاولى تعده وسيلة لتلقين بعض معلومات وآراء خاصة والثانية تراه سبيلا الى تكوين التقدير الحر المستقل وقد جاءت كل من السيكولوجية والبيداغوجية الحديثة فاثرت فى النظم

التعليمية السائدة وخصوصاً فى الخمس السنين الأولى من العمر . اذ تبين أن لهذه الفترة من حياة كل انسان تأثيرا هاما عليه فى المستقبل لأن الخلق يتكيف فيها بما يصعب التحرر منه أو الاقلاع عنه فيما بعد

والباحث لموضوع التربية يجب أن يفرق بين تربية الخلق وتنمية المعلومات. فالمعلومات لازمة لممارسة كثير من الفضائل بنجاح . وسنبدأ أولا بتربية الخلق لأهميتها فى السنوات الأولى من الحياة ثم نبحث التربية الذهنية بعد ذلك : أغراضها وبرامجها وكل الفروض الممكنة فيها من رياض الاطفال إلى الدراسة الجامعية

(ا) المثل العليا للتربية

١ — النظرية الحديثة فى التربية

لوك وروسو هما المصلحان اللذان قاما باصلاح نظم التربية قبل القرن التاسع عشر . وكلاهما كان نزع الى الحرية والديمقراطية ولكن الخطأ الأساسى فى تعاليمهما أنهما عنيا بتعليم أبناء الطبقة لارستقراطية فقط فكانا يجعلان لكل صبي معلماً خاصاً . وقد يكون لهذا النظام بعض الحسنات ولكن مساوئه تجعله قليل القيمة فى العصر الحديث وتجعل تطبيقه مستحيلا

والنظام المثالي للتربية يجب أن يكون ديمقراطيا أي يجب أن يكون مفتوحا أمام الجميع على السواء أو على الأقل لجميع من تهيؤهم كفايتهم للانتفاع منه . وليس هذا سهل المنال فى الوقت الحاضر. ولذلك فالغالبية من الناس مضطرون الى التضحية بأبنائهم للنظم السائدة الآن

وهنا يجب أن نوضح المقصود من الديمقراطية والتعليم . فمن اكبر الخطأ أن نضع مستوى ثابتاً لجميع الصبيان والفتيات على السواء لأن لبعضهم من المقدرة والذكاء ما يؤهلهم للسير فى التعليم بخطى أسرع من غيرهم . وقد يؤدي التطبيق الغشيم لقواعد الديمقراطية الى الظن بعدم وجودها وفى هذا أكبر الخطر على التقدم العلمى لأنه سيرجع بالمستوى العام للتعليم القهقرى . فينبغى الا نضحى التقدم الحقيقى فى مقابل المساواة الآلية . وينبغى أن نعالج ديمقراطية التعليم بكل حذر

غير أننا من ناحية أخرى نعرف أن من الشروط الأساسية فى التعليم أن يكون عاما . وأبناء الأغنياء يجدون فى رعايتهم عدداً من المربين والخدم لايستطيع أي نظام اجتماعى أن يكفله للجميع ولذلك فمن حسن الحظ أن تقضى النظرية الحديثة فى التربية بجعل التعليم ديمقراطياً . ويري ذلك بصفة خاصة فى مدارس مدام منتسورى للاطفال . أما التعليم العالى فلا مفر من أن يعطى كل طالب فيه الفرصة التى تهيؤها له كفايته

وهناك نزعة أخرى فى التربية الحديثه تتصل بالديمقراطية أيضاً : هى التروع بالتعليم الى الفائدة والنفع دون الزينة واللهو . والتعليم للهو يتصل بالارستقراطية . واذا نظرنا الى التعليم من هذه الناحية ظهرت لنا عقبة أخرى تقيمها المرأة فى دعوتها الى المساواة مع الرجل . . فانها فى غمار هذه الدعوة تريد أن تكون برامج التعليم للفتيات هى برامجه للصبيان ناسية أن ما « يفيد » الفتى قد لا يفيد الفتاة دائماً ومتجاهلة أن اى، نظام تعليمى سليم للفتاة لا يجوز أن يكون خاليا من دروس عمليه فى الامومة

وهنا ينبغى أن نوضح المقصود من كلمه « الفائدة » . فالنشاط المفيد هو ـ فى أوسع معانى هذه العبارة ـ الذى يؤدى الى « نتائج » حسنة . و « النتائج » الحسنة تختلف باختلاف الحاجة اليها وطبقاً لوجهات النظر المتباينة . فبعض الناس يعدون العمل « مفيدا » إذا كان من « نتيجته» اشباع حاجات الجسم ورغائبه . وهؤلاء مثلا يرون الدعوة الى الفلسفة خطأ ينبغى تجنبه وقد يكونون على صواب إذا نودى بالفلسفة فى زمن المجاعة لأن اشباع الجوع فى تلك اللحظات يكون ألزم من أى عمل آخر

أما التعليم للهو فقد كان من خصائص القرن الثامن عشر وهو لون من ترف الارستقراطية ندرسه الآن كدور من أدوار التطور فى النظم التعليمية دون أن نفكر فى اصطناعه لانفسنا

والمشكلة الهامة التى نواجهها فى التعليم الحديث ينحصر حلها فى الاجابة على هذا السؤال :

أولها . بين فريق الارستقراطيين والديمقراطيين . فالأولون يقولون ان التربية فى أبناء طبقتهم يجب أن تتجه نحو تعليمهم كيف يشغلون فراغهم فيما يسرهم ويسليهم أما تربية ابناء العامة فيجب أن تتجه نحو تعليمهم كيف يشغلون فراغهم فيما ينفع الغير . والديمقراطيون لايوافقون على هذا الرأى ويقولون ان اتباعه يقسم المجتمع إلى فريقين ليس فى المصلحة أن يوجدا فيه . فريق الذين يعيشون للنفع والفائدة وفريق الذين يعيشون للهو والتسلية

وثانيهما . بين فريق الذين يرومون من التعليم النفع المادى وفريق الذين يرومون منه اللذة الذهنية . فالأولون يرون أن وسائل الراحة والترف التى تهيؤها الحضارة الراهنة للانسان ألزم له وأجدى عليه من مختلف اللذات الذهنية . وهذا الكلام صحيح إلى حد ما ولكنه ليس الحقيقة كلها . فقد لايكون للخير المادي أثر كبير عند الانسان إذا اعتاده ولكن للشر المادى مضاراً كثيرة وقد ينال بعضها من كفايته الذهنية . فالمجاعة أو المرض أو ترقبهما أو توقيهما من الأمور التى شغلت جزءاً كبيراً من جهد الانسان منذ أقدم العصور وصرفته عن تذوق السعادة أو التمتع بالحياة كما ينبغى . أما الآن فقد استطاعت هذه الحضارة الصناعية أن توفر للانسان — لاول مرة فى تاريخه —

فمطاً معقولا من الترف والسعادة . وأصبح فى مقدوره أن يكافح آفات المادة كالفقر والمرض وأن يحصل على القدر الكافى من الطعام وأن يجعل نسله فى الحدود التى يسمح بها انتاج الدنيا من الغلات . وكل هذه أمور لها قيمتها فى الحياة الانسانية فلا يصح أن نتجاهل النظام التعليمى الذى يدعو لها ويؤدي اليها . ومثل هذا النظام يجعل للعلوم التطبيقية المقام الأول وهذه العلوم — وهى الطبيعيات والفسيولوجيا والسيكولوجية — هى الأساس الذى سوف تقوم عليه الدنيا الجديدة . ولن يضير هذه الدنيا فى شىء أن تخلو من اللاتينية أو اليونانية أو من دانتى وشكسبير أو من باخ وموزار

ويقودنا هذا البحث إلى الاعتراض الثالث فى الموضوع وهو . هل صحيح أن المعلومات التى لاقيمة لها إلا فى ذاتها غير نافعة ؟ والجواب على هذا نعم . فالكثيرون من الناس قضوا جزءاً كبيراً من صباهم وشبابهم فى دراسة اللاتينية والاغريقية واشباههما من العلوم فهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الدراسة كانت أكثر من مجهود ضائع عقيم . . . وهل يستطيع أحد أن يزعم أنها تجعل المرء أصدق نظراً إلى مختلف المسائل والمشاكل التى تعرض للحضارة الراهنة ؟ أما العلوم الطبيعية والرياضية فانها ليست عظيمة القيمة فى ذاتها وحسب ولكنها تمد أمام المرء آفاقا لاحصر لها للتأمل والفكر وهى محك الحقيقة فى عالم يفيض بالزيف والضلال . أضف إلي ذلك أن المعارف الانسانية يتسع مداها على الأيام والمشاكل البشرية تزداد تعقيداً كل حين فينبغى أن يكون من واجب كل جيل أن يصلح نظمه التعليمية حتى يستطيع أن يطابق بينها وبين مايستجد من أمور الدنيا ولن يتيسر له ذلك إلا إذا عمل على تبسيط الثقافة الأدبية فى النظم التعليمية حتى تترك مجالا كافياً للثقافة العلمية التى لايمكن أن تخلق الدنيا الجديدة أو تتقدم بدونها

ولسنا نقصد بهذا الغض من قيمة الثقافة الأدبية فان الالمام بشىء من الأدب الرفيع والوقوف على تاريخ الدنيا ودراسة الموسيقى والتصوير والمعمار كلها أمور لازمة لنضوج ملكة الخيال فى الانسان . وهذا الخيال لازم لانه السبيل إلى التقدم والرقى . فكل نهضة تبدأ خيالا ثم تصبح فكرة ثم تتم عملا . ولكن العلم أيضاً يستطيع أن يحفز الخيال فلا يجوز أن نغمطه حقه فى هذا السبيل . كما لايجوز أيضاً ان نغفل أثر الميل الشخصى فى هذه الناحية ولذلك فنحن نقترح أن تكون الثقافة الأدبية — فى غير حالات التخصص — مقصورة على جزء صغير من البرنامج فى السنوات الاولى من الحياة التعليمية . أما السنوات الأخيرة فالأفضل أن تكرس لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية مالم يبد الشخص ميلا ظاهراً فى احدي النواحى الاخري

وقد اقتصر الحديث حتى الآن على بحث نوع المعارف التى ينبغى أن تعطى للتلاميذ ولكن لا بد لاتمامه من بحث النواحى الاخرى التى تتناول طرائق التعليم والتربية الاخلاقيـة وهذه النواحى

لاشأن لها بالسياسة ولكنها تتصل بالسيكولوجية وعلم الآداب . وقد ظلت السيكولوجية إلى عهد قريب دراسة أكاديمية علمية لاشأن لها بالتطبيق العملى . ولكنها أصبحت الآن علماً على حظ وافر من الاهمية العملية وأصبحنا نري من فروعها السيكولوجية الصناعية والسيكولوجية الاكلينيكية والسيكولوجية التعليمية . وليس بعيداً — بل أننا لنأمل — أن يمتد تأثير السيكولوجية حتى يتناول جميع نظمنا فى المستقبل القريب بالنفع والفائدة

وأول ماتناوله فى هذا البحث هو موضوع النظام . والفكرة القديمة عن النظام كانت سهلة اذ يكلف الطفل بعمل شيء يكرهه أو يمنع عن عمل شيء يحبه . فاذا خطر له ان يخالف الأوامر الصادرة اليه عرض نفسه للعقوبة الجسدية أو للحجز الانفرادي مع اعطائه الخبز والماء فقط

أما التربية الحديثة فانها تصل إلى النظام من سبل أخرى . وقد يخال للذين لم يدرسوا هذه الطرق انها لاتعرف النظام ولكن الواقع غير ذلك . ومن الامثلة الحسنة فى هذه الناحية المدارس التي تتبع طريقة مدام منتسورى . فهى تزرع فى أطفالها روح النظام دون أن تشعرهم بأى ضغط أو اكراه خارجى لانها تجعل القواعد التى تعطى لهم بمثابة قواعد اللعب فبذلك يتبعونها كوسيلة للتسلية والمرح . وقد كشفت هذه الطريقة أيضاً عن زيف الفكرة القديمة التى كانت تعد الطفل خالياً من الرغبة فى التعلم فينبغى إذن أن يكره عليه اكراها . وأبانت أن السبب فى هذه الحالة كان عجز القائمين بأمور التربية عن تفهم عقلية الاطفال وتقسيم البرامج الموضوعة إلى أقسام يستسيغها الطفل المتوسط. أما القواعد التى وضعتها مدام منتسورى للاطفال وطلبت اليهم اتباعها فتكاد تقتصر على مايأتى : لايجوز للطفل أن يتدخل فى شئون غيره ولا يجوز له أن يملك أكثر من لعبة واحدة فى الوقت الواحد . وهذه قواعد مفهومة ومعقولة ولا يعسر على أى طفل ان يتبعها وهو لايشعر بالاكراه الخارجى . وبذلك نرى أن هذا النظام — فضلاعن أنه يزرع فى نفس الطفل كثيراً من العادات الطيبة — فانه يشعره بضرورة مقاومة النزعات والاهواء الطارئة فى سبيل الوصول إلى هدف ثابت . وهذه فكرة عبقرية فى ذاتها ولكن تطبيقها لايحتاج إلى أكثر من المرانة مع شيء من الصبر والحنان

ومن الامور التى ساعدت على هذا التغيير فى النظم التعليمية زوال الاعتقاد التقليدي الذى ظل سائداً زماناً طويلا بأن الانسان يولد وهو محمل بالخطيئة نزاع إلى الشر والاثم . وقد كانت هذه الفكرة الزائفة من الاسباب التى ارتكن اليها الداعون إلى نظرية العقوبة البدنية « الضرب والجلد » فى المدارس. وقد زالت من التعليم الآن ولكنها لاتزال متسلطة على النظرة إلى الجريمة والعقاب وفى الناحية المقابلة لهذه الفكرة نجد فكرة اخري أقل ضرراً فى آثارها وإن لم تكن خطأ فى

نشأتها تلك هي أن الطفل ميال إلى الخير بطبيعته وانه لايفسد إلا من محاكاة الرذيلة فيمن هم أكبر منه سناً . والمبتدع لهذه الفكرة هو روسو ولكن القارىء لكتابه «أميل» يرى أن تلميذه كان فى حاجة إلى كثير من المرانة الخلقية قبل أن أصبح النموذج للنظام الذي شاء أن يبتدعه . والحقيقة هى أن الطفل ليس ميالا إلى الخير أو الشر بطبيعته وكل تراثه حين يجىء إلى هذا العالم لايتعدى قليلا من الافعال المنعكسه وبعض الغرائز . وعلى هؤلاء وأولئك تؤثر البيئه فتتكون العادات التى قد تكون سليمه أو سقيمه بحسب الظروف التى يتعرض لها الطفل . أما الضرب والقصاص فليس — كما نعلم من السيكولوجيه الحديثه — الطريقه المثلى لتكوين الفضائل . وليس من العسير أن نجعل الطفل ذا الصحة الحسنة سعيداً وأغلب الأطفال يستطيعون التمتع بصحة حسنة إذا وجهت العناية المناسبة لأجسامهم وعقولهم . والسعادة فى الطفولة من الشروط الأساسية لتكوين الرجل السليم . ولن يكون للخمول الذى كان رجال التربيه القديمه يعدونه من المساويء الخلقيه أثر إذا شعر الطفل بأن التربية هى معرفه شيء ينبغى أن يعرفه . أما إذا شعر أن المعارف التى تعطى له لاقيمة لها وكان مدرسوه طغاه قساة فمن الطبيعى أن ينصرف عن التعلم والافادة . فينبغى إذن أن تكون الرغبه الكامنه فى نفس كل طفل طبيعى هى القوة الحافزة له لطلب العلم ويجب أن نعد الاستعاضة بهذه القوة عن العقوبة البدنية من أفضل الخطوات الموفقه التى خطتها التربيه فى العصر الحديث

وهناك ظاهرة أخرى فى التربية الحديثة لها اثارها الهامة : هى توجيهها كثيرا من العناية للطفولة . وهذه الظاهرة تتفق مع نظرتنا الجديدة الى تدريب الخلق . فقد كانت الفكرة القديمة تقضى بان الفضائل تعتمد على الارادة وكان المفروض ان نفس الانسان تمتلىء برغبات الشر التى تكبحها قوة الارادة دون أن تقوى على انتزاعها . ولكننا نعلم الآن ان هذه الفكرة تنحرف عن الصواب كثيرا ونعلم ان الطفل يميل الى اكتساب حب زملائه وكباره وأن عنده نزعات يمكن ان تنمى فى ناحية الخير او الشر بحسب المؤثرات التى يتعرض لها . ثم انه فى سنه الرطبة يكون اسهل الى تكوين العادات . واصطناع العادات الطيبة يجعل ممارسة الفضيلة فى الغالب عملا آليا .

اما النظرة القديمة الى الفضيلة التى كانت تقضى بترك الرغبات الشريرة ظافرة وتقنع بالارادة لكبح مظاهرها فقد ثبت انها قليلة الجدوى فى ضبط الخلق السيء لان الرغبات الشريرة كالنهر الذى إقيمت عليه السدود تلتمس منفذا لها فى ناحية غفلت عنها عين الارادة الساهرة . والرجل الذى كان يشعر فى شبابه بالرغبة فى قتل ابيه يلتمس التفريج عن هذه الرغبة فى المستقبل بجلد ابنه وهو يعتقد انه يعالج آثامه الخلقية . فكل نظرية تشجع القسوة أو تبررها يجب أن ننظر اليها بعين الحذر

ويجب أن نعدها انحرافا عن الحالة الطبيعية بسبب أو دافع خاص . والخلاصة أن ضبط الرغبات الشريرة بالارادة قد يكون لازما فى قليل من الأحيان ولكنه عقيم كطريق دائم لتكوين الفضيلة

وتؤدى بنا هذه الاعتبارات جميعا الى ميدان جديد هو ميدان التحليل النفسانى . ونحن من الذين يؤمنون بان التحليل النفسانى سيخلق طرائق جديدة لتدريب الخلق ولكننا نرى أن رجاله يغالون فى تقدير اثر الطفولة الأولى على حياة الانسان . وكثير منهم يعدون الآثار التى تنطبع على الطفل فى السنوات الثلاث الاولى من حياته غير قابلة للتغيير وهذا غير صحيح كقاعدة عامة وان كان هناك مايبرره فى بعض الاحيان

والخلاصة أن تدريب الخلق يجب أن يبدأ منذ الولادة ولن يتيسر ذلك اذا بقيت الامهات على هذه الحال المؤسفة من الجهل . كما أن التعليم يمكن أن يبدأ فى سن مبكرة جدا اذا وضع فى صورة تشوق الطفل دون ان ترهقه

الغرض من التعليم

يختلف الغرض من التعليم باختلاف التقدير لاهمية العناصر التى يتكون منها الخلق الانسانى. ومن الحماقة والسخف ان يشاد نظام تعليمى فلا يحقق الغرض الذى اراده منه القائمون به وهانحن اولاء نلخص الاغراض التى كانت ترمى اليها النظم التعليمية فى المدارس المختلفة قبل أن ننتهى الى رأى فيما ينبغى أن يكون عليه الغرض من التعليم فى المستقبل

« ١ » فالمدرسة الصينية القديمة كانت تشبه مدرسة اثينا لانها كانت تكلف تلاميذها حفظ تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب كما كانت شبيهتها تكلف تلاميذها حفظ هوميروس . ومدرسة اثينا كانت تقتضى من اتباعها شيئا من الأحترام والتبجيل لالهتها دون أن يقف ذلك حائلا بينهم وبين التفكير الحر وكذلك كان الصينيون يكلفون مراعاة بعض الطقوس الخاصة بعقيدتهم الدينية ولكن دون أن يطلب منهم الايمان بما تقتضيه تلك الطقوس . بل لقد كان يباح لهم مناقشة كل العقائد بمنتهى الحرية والهدوء . وهذا أمر مميز لحكماء اثينا وحكماء الصين على السواء ولكنه نادر الحدوث فى الحضارة المسيحية . وثمة غاية أخرى اتفق فيها الاثينيون والصينيون . تلك هى رغبتهم فى التمتع بالحياة ونظرتهم الى هذا التمتع بعين يهذبها احساس رفيع بالجمال

غير أن هناك اختلافات واسعة بين الحضارتين ترجع إلى أن الاثينيين كانوا أهل عمل وجد ونشاط والصينيين كانوا اهل كسل وتراخ وخمول . وقد وجه الاغريقيون جهودهم الى مختلف العلوم والفنون فبرزوا فيها . وكانت الوطنية والسياسة منفذا للنشاط العملى عندهم فاذا تنكرت احدي

المدن لاحد المشتغلين بالسياسة من ابنائها جمع حوله عصابة من اتباعه ليهاجم مدينته . أما الصينى الذى تطرده عشيرته فانه يعتكف فى الجبال وينظم الشعر متغزلا فى محاسن الحياة الريفية ! ولعل هذا هو السبب فى أن الحضارة الاغريقية هى التى هدمت نفسها أما الحضارة الصينية فقد هدمها الغير فى الخارج

والتعليم الصينى يوحى بالجمود ويهتم بالآداب فهو لذلك لايعرف التقدم ويخلو من النهضة العلمية . ولعل هذا أهم مايميز مذاهب الشك فان العلوم لايمكن أن تنتعش فى جو تشبع بروح الشك الادبى . والعلوم بطبيعتها تقتضى انتشار الديمقراطية أما الآداب فهى دائما من مميزات الارستقراطية ولذلك بقيت كل من الحضارتين الصينية والاغريقية مقصورة على فريق من الخاصة والمثقفين كما استندت كل منهما الى الرق. وهذه الأسباب كلها تدل على أن المدرسة الصينية التقليدية لاتطابق روح العصر الحديث ولذلك اهملها الجميع حتى ابناؤها

« ٢ » أما المدرسة اليابانية الحديثة فلعلها أشد الامثلة وضوحا على النزعة الحديثة التى تجعل مجد الوطن هو الغرض الأعلى من التعليم . والواقع أن التعليم فى اليابان يرمى الى غرضين معا : أولهما تربية روح الولاء للوطن فى نفس كل يابانى وذلك بتدريب أهوائه واخضاعها لحاجة الوطن حين يقوم الداعى اليها . والثانى استغلال كل المعارف التى يحصل عليها المواطن اليابانى لفائدة الوطن . وقد وفقت المدرسة اليابانية الى تحقيق هذين الغرضين من التعليم توفيقا عظيما ولكنها فى هذا السبيل أوجدت نوعين من الطغيان الدينى والطغيان الأدبى وهذا الاخير يحتوى على الوطنية وتقديس الاباء وعبادة الميكادو وغير ذلك مما يجعل التقدم فى كثير من النواحى مستحيلا إلا إذا نشبت الثورة . وخطر هذه الثورة موجود وإن لم يكن قريبا

ومن هذا نرى أن للمدرسه اليابانية الحديثة عيوبا تناقض عيوب المدرسة الصينية القديمة فبينما أحداهما توحى بالشك والخمول إذا بالاخري تبعث الجزم والنشاط . وكلا هذين الاتجاهين خاطىء لان المدرسة لايجوز أن تغرس الاذهان إلى الشك أو إلى اليقين ولكنها يجب أن تغرس فى نفوس تلاميذها الايمان بأن العلم يمكن أن يكتسب وان كان الطريق اليه محفوفا بالمصاعب والجهود أو بعبارة أخرى أن اكتساب العلم عسير وليس مستحيلا . ومن هنا اختلاف وجهة النظر فى المدرستين فالمدرسة اليابانية التى تغرس الجزم واليقين تنسى صعوبة العلم والمدرسة الصينية التى تزرع الشك والريب تنكر إمكان تحصيله . والانها فى كل من هذين الاتجاهين يؤدى إلى كوارث اجتماعية كبرى

« ٣ » أما مدارس الجزويت فقد وقع القائمون بها فى مثل الخطأ الذى وقع فيه اليابانيون وذلك باخضاعهم التعليم لمصلحة نظام آخر، هو الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن هذه المدرس

لاتعنى بنفع التلاميذ بقدر عنايتها باعدادهم ليكونوا أدوات نافعة فى خدمة الكنيسه والذين يستمعون الى وجهة نظر القائمين بهذه المدارس يلتمسون لهم العذر إلى حدما لانهم كانوا يرمون إلى إنقاذ الناس من عذاب النار وهم لايعرفون وسيلة إلى ذلك — فيما يعتقدون — الا الكنيسة الكاثوليكية . أما الذين لايقبلون هذا الرأى فسيحكمون على التعليم الجزويتى بنتائجه وهذه النتائج هى نهضة الاصلاح وانهيار البروستانتية من فرنسا . وقد توسل دعاة الجزويت إلى هذه الغايات بان جعلوا الفن عاطفيا والتفكير سطحيا والآداب رخوة لينة ثم كان لابد أن تقوم ثورة جائحة كالثورة الفرنسية لتكتسح المضار والشرور التى احدثوها

« ٤ » أما نظام الدكتور ارلوند الذي لايزال متبعا فى المدارس الانجليزية حتى اليوم فعيبه أنه نظام ارستقراطى . والغرض منه أن يعد تلاميذه لتبوّء المناصب الرفيعة فى مختلف أنحاء الامبراطورية . وهناك بعض صفات خاصة لابد من وجودها لبقاء الارستقراطية . وهذه الصفات يجب أن تغرس فى صاحبها منذ وقت الدراسة وهى توجب عليه أن يكون نشطا قليل التأثر بالعوامل الخارجية قوى الجسم صلب الرأى فى بعض الأمور ذا مستوى عال من الاستقامة وصواب التفكير شديد الايمان بانه يؤدي رسالة هامة فى الحياة . ولكنها فى مقابل هذا تضحى ببعض الصفات الاخرى كالتفوق الذهنى لانه قد يولد الشك والرحمة لانها قد تتداخل فى حكم الشعوب «المنحطة» وقد يكون من نتائج هذا التعليم فى دنيا لاتتغير الامور فيها كل يوم أن يقوم نظام فى الارستقراطية الثابتة له محاسن وعيوب النظام الاسبرطى القديم . ولكن الارستقراطية قد عفا زمانها الآن وأصبح للذكاء الشأن الاول فى حكم الشعوب كما أصبح الحاكم هو الرجل المخلص فى خدمة مواطنيه لا السيد المبجل الذي يدين الناس بالطاعة له والاعجاب به

« ٥ » أما المدارس الامريكية العامة فقد وفقت فى مهمتها توفيقا كبيرا . ذلك أنها استطاعت أن توجد التجانس بين عدد كبير من الناس كان يباعد بينهم النفور والاختلاف . وهذا عمل مجيد فى ذاته مفيد فى نتائجه ويستحق القائمون به كل شكر وتقدير . ولكن لأمريكا ـ كاليابان ـ وضعاً خاصا . واذا كانت ظروفها المحلية تكفل النجاح لنظام بعينه فليس معنى هذا أنه نظام ناجح فى غيرها من البلدان . وللحياة فى أمريكا محاسن ومساوىء فمن محاسنها : ارتفاع مستوى الثروة وبعدها عن خطر الحرب وخلوها من التقاليد الموروثة من العصور الوسطى . وقد كونت روح الهجرة الى أمريكا عاطفة قوية من الديموقراطية وساعدت على تقدم الصناعة . والطفل الذى يولد فى امريكا ينسى وطنه الاصلى ولايذكر إلا أنه أمريكى وهذا فضل المدرسة أولا وقبل كل شىء

ولسنا ننكر أن المستوى الذهنى فى أوربا الغربية والمستوى الفنى فى أوربا الشرقية أعلى منهما فى أمريكا . كما أن الخضوع للخرافات الدينية فى أوربا الغربية ـ باستثناء أسبانيا وبرتغال ـ أقل

منه فى أمريكا . وشعور الرجل الأوربى بالحرية الذاتية قوي . والمدرسة فى أمريكا لاتتطلب من تلاميذها الا أن يروا الروح القومية الامريكية فقط . فهى بذلك قد وقعت فى الخطأ الذي وقع فيه اليابانيون والجزويت من اعتبار التلاميذ وسيلة لغاية . فالمدرس يجب أن يحب تلاميذه أكثر من وطنه أو كنيسته وإلا لما عد مدرسا كاملا

والذين يؤمنون بان التلاميذ يجب أن يعدوا غاية فى أنفسهم لاوسيلة لغايه أخرى قد يسمعون من يقول أن أهمية الفرد كوسيلة تفوق كثيرا أهميته كغاية لان الفرد كغاية ينتهى بالموت اما ما ينتجه كوسيلة فيمضى مع الزمان الى غير نهاية وهذا الاعتراض صحيح ولكننا ننكر النتائج المستخلصة منه فاهمية الفرد كوسيلة قد تكون للخير أو للشر والقاعدة العامة أن الرجل الفاضل يقوم باعمال فاضلة والرجل السيء يقوم باعمال سيئة « ولهذه القاعدة بطبيعة الحال شواذ » . والأطفال يدركون بغرائزهم الفرق بين من يريدون لهم الخير مجردا لذواتهم وبين من يريدون أن يجعلوا منهم وسائل لغايات أخري . ولن تتيسر تربية الخلق والذكاء على وجه حر صحيح إذا كان المعلم يعوزه الحب لتلاميذه . والحب هنا يعنى أن يشعر المعلم بأن تلميذه غاية . ومثل هذا الحب يشبه حب الأباء لأبنائهم

غير أنه لايكفى أن يحب المعلم تلاميذه بل يجب أن يكون ذا تقدير سليم للكمال البشرى وليس يهم فى هذا البحث أن نفرق بين كمال الرجل وكمال المرأة وإن كانت المرأة التى سيوكل اليها أمر العناية بالأطفال يلزمها شيء من المرانة الخاصة

أما الصفات التى تكون مجتمعة أساس الخلق المثالى فهى الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء . وتستطيع المدارس أن تهذب هذه الصفات وأن تنميها فى نفوس تلاميذها إذا عرفت كيف تسلك الطريق القويم لتدريبهم فى مختلف النواحى الجسدية والعاطفية الذهنية المناسبة

أما الحيوية فانها صفة فسيولوجية أكثر منها صفة عقلية ووجودها يتوقف إلى حد كبير على إعتدال الصحة . وهى تهبط كلما تقدمت السن وتتلاشى فى الشيخوخة وتبلغ أوجها فى الأطفال قبيل التحاقهم بالمدرسة وتخلق فى صاحبها روح المرح بغض النظر عن أى مؤثر آخر وتزيد من سروره وتقلل من آلامه وتنعش فيه الاهتمام بكل مايدور حوله . فالانسان سريع إلى تركيز الاهتمام فى ذاته وفقد الاهتمام بما يراه أو يسمعه خارجا عنها . وهذا شر كبير فى نفسه لانه فى أهون صورة يولد الملل والسآمة وفى أخطرها يولد السوداء وفى أى الحالين يعوق المرء عن أن يكون عاملا نافعاً فى البيئة التى يعيش فيها . والحيوية ميزة أخري هى انها تنمى القدرة على العمل الشاق. وتعصم صاحبها من الحسد لانها تملأ نفسه بالمرح والسعادة

أما الشجاعة فتتخذ لها مظاهر متعددة وجميعها معقدة ، ومن هذه المظاهر مثلا عدم وجود الخوف ومنها أيضاً القدرة على ضبط الخوف . وفى الحالة الأولى يختلف الامر إذا كان الخوف معقولا عما إذا كان غير معقول وهكذا

وللخوف غير المعقول تأثير هام على الحياة العاطفية الغريزية فى الغالبية من الناس . وقد يخرج فى بعض الاحيان عن حدود الصحة — كما فى حالات جنون الاضطهاد ومركب القلق — ولكنه فى أدواره السهلة واسع الانتشار فيمن يعدون من الاصحاء . وقد يتخذ صورة شعور عام بخطر محدق ـ وهذا مانفضل أن نسميه القلق ـ أو قد ينحصر فى الخوف إلى درجة الرعب من أشياء خاصة ليست خطرة فى ذاتها كالفيران والعناكب . وكان الاعتقاد الى عهد قريب ان الخوف فى أغلب مظاهره غريزي ولكننا نعلم الآن أن أغلب مظاهر الخوف مكتسبة أما من التجربة أو من الايحاء والقليل منها ـ كالخوف من الصوت الداوى ـ هو الغريزي . ولكن الخوف مع ذلك سريع العدوى إلى حد كبير . وتنتقل عدواه الى الاطفال من كبارهم دون أن يلتفت هؤلاء إلى أنهم أفصحوا عن بعض مظاهره للصغار . فالجبن أو التهيب سرعان ماينتقل بواسطة الايحاء من الام أو المربية إلى الطفل . ومن الامور التى عادت بأشد الضرر على الابناء رغبة الرجل فى أشباع غروره وذلك بأن تبدو المرأة أمامه وجلة خائفة لان الخوف كان ينتقل إلى الابناء بالايحاء وكان من العسير بعد ذلك اعادتهم إلى الحالة الطبيعية

والسؤال الذى يعرض لنا الان فى هذا الصدد هو : هل يصح أن نقنع عند معالجة الخوف بكبته أو هل يجب أن نزيله و نقتلعه من أساسه ؟ والاجابة على هذا السؤال تعود بنا الى الماضى القريب : فقد كانت التقاليد الارستقراطية تقضى بالا يبدو على الرجل أى مظهر من مظاهر الخوف وكان مقياس الشجاعة عندها فى سلوك الرجل ألا يهرب من الحرب وأن يجيد كثيراً من الالعاب الرياضية وأن يحتفظ بالهدوء وضبط النفس فى الازمات المفاجئة كالحريق وغرق السفن والزلازل والا يبدو الشحوب والاصفرار على وجهه والا يرتعد أو تظهر عليه أى علاقة تنم عن الخوف . وكل هذه الامور على جانب كبير من الاهمية ولكنها لاتكفى لاننا نريد أن نري الشجاعة فاشية عند جميع الشعوب و بين جميع الطبقات وفى جميع الافراد من الجنسين ، ولن يتيسر لنا بلوغ هذه الغاية إذا كنا لا نعالجها إلا بكبت الخوف لان هذا ينطوى على الاهتمام بالمظهر دون العناية بالعامل الأساسى . فعلاج الخوف علاجا قاطعاً يقتضى العمل على ازالته تماما لامن الاعمال الظاهرة بل من الشعور ولا من الشعور الواعى فقط بل من الشعور غير الواعى أيضاً

والسيكلوجية الحديثة تقضى بان الخوف والحدة عاطفتان متقاربتان والرجل الذى يسرع الى

الاحتداد لايمكن أن يكون ممتازاً فى شجاعته . كما أن القسوة التى تبدد فى قمع الحركات الاستقلالية والنزعات الاشتراكية ليست فى الواقع إلا دليلا على الجبن ويجب أن تقابل بمثل الاحتقار الذى تقابل به المظاهر الاخرى الاشد وضوحا فى هذه الرذيلة

ولابد للشجاعة الفردية من بضعة عوامل تتآزر على تكوينها وأهمها الثروة والحيوية ثم المرانة والمهارة فى تدبير الخلاص من المآزق الحرجة . أما الشجاعة فلابد أن تمتلىء نفس المتصف بها من هذين الخلقين : احترام الذات من ناحية والتجرد عن النظرة الذاتية فى تقدير الحياة من ناحية أخرى . والناس من ناحية احترام الذات فريقان : فريق يشعر شعوراً داخليا بنفسه وفريق يعيش كالمرآة التى تحاكى مايشعر به ويقوله الآخرون . والفريق الاخير لايمكن أن يعرف الشجاعة الحقيقية لانه يطلب اعجاب الناس ويحرص عليه خشية فقده

وقد كانت النظم القديمة تقضى بان يتعلم الاطفال الخضوع والاذعان بحجة أن الذى لم يتعلم كيف يطيع لن يعرف كيف يأمر وأما نحن فنقول بانه لايجوز أن يتعلم أحد أن يطيع أو يحاول أحد أن يأمر . ولسنا ندعو بهذا الى الفوضى ولكننا نرمى الى أن يكون سعينا الى الهدف الذى نقصده نتيجة لحاجة نشعر بها فى نفوسنا لا نتيجة لضغط خارجى . وبديهى أيضا أننا لا نحاول مطلقا أن نرغم الغير على اعتناق الآراء التى ندين بها

ونحن من هذا نرى أن الشجاعة الكاملة لايعرفها الا الرجل الذى يشعر بان ذاته ليست إلا جزءاً صغيرا من الكون ـ لاعن احتقار لها ولكن عن تقدير لسواها ـ وهذه الحالة بدورها لايمكن أن توجد إلا حيث تتحرر الغرائز وينشط الذكاء . وهذه هى الشجاعة الايجابية التى تعد من الاركان الهامة للخلق الكامل

الحساسية :

العامل الهام فى الحساسية هو الحنان . وللحنان الصادق شرطان أساسيان الاول أن يشعر المرء به حتى ولو لم تربطه بالمتألم أى علاقة خاصة ، والثانى أن يشعر المرء به بمجرد أن يعلم بحدوث الألم ودون أن يراه مجسدا . والشرط الثانى يتوقف الى حد كبير على الذكاء . والقدرة على الحنان المجرد أمر نادر وهام . ولايضاح ذلك نقول ان الانسان يتألم اذا اتصل به قتل أخيه أو قريبه فى الحرب ولكنه لايتألم اذا سمع أن مليونا من الناس قضوا فيها . ان كثيرا من شرور الدنيا الحديثة تزول اذا وفقنا الى اصلاح هذا الزيف . وقد استطاع العلم أن يزيد من قدرتنا فى التأثير على حياة الغير ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يزيد من شعورنا بالحنان نحوهم

الذكاء :

من أكبر الاخطاء التى وقعت فيها الكنيسة أنها وجهت كل عنايتها الى ماسمته « الفضيلة » وهى تقصد بالفضيلة الامتناع عن طائفة من الاعمال التى تدخل فى عداد « الخطيئة » . وقد بقى هـذا الزيف فاشياً زمنا طويلا . ومادام باقيا فلن يدرك الناس أن الذكاء ألزم للدنيا وأنفع لها من هـذه الفضيلة التقليدية المعطنة . ولايتوقف الذكاء على المعلومات التى يعرفها المرء بمقدار مايتوقف على قدرته على تحصيل هـذه المعلومات . وهذه القدرة على التحصيل يمكن أن تنمى بالمرانة . وبدون الذكاء لايمكن أن تبقى حضارتنا المعقدة الراهنة فضلا عن أن تتقدم . فتدريب الذكاء يجب اذن أن يكون من أهم الأغراض التى نرمى اليها فى التربية وقد يبدو هذا الرأى من البديهيات التى لاتحتاج إلى البحث والتسوية ولكنه فى الواقع ليس كذلك لأن رغبة الكثيرين من رجال التربية فى تلقين التلاميذ مايعدونه آراء صحيحة تجعلهم يهملون تدريب الذكاء عندهم . ولأهمية الموضوع سنقوم بشرحه بشىء من التفصيل

فالأساس الغريزي للحياة الذهنية هو الفضول الذى نشاهده فى أدواره الاولى عند الحيوان ولكن الذكاء يحتاج الى نوع خاص من الفضول . ورغبة الغالبية العظمى من الناس فى الوقوف على أسرار غيرهم هى فضول ولكنه فضول رخيص . كما أن ميلهم إلى التحدث عن شئون الغير الخاصة ليس الدافع فيه المعرفة ولكنه الحقد بدليل أنهم يتحدثون عن الاخطاء والسيئات ولا يذكرون شيئاً عن الحسنات . وهم فى حديثهم عن الاخطاء لا يكلفون أنفسهم عناء التريث لتمحيص مايتحدثون عنه والتثبت من صحته أو ضلاله . أما الفضول الصحيح فهو ما يكون الدافع اليه حب الحقيقة وهو يشاهد بصورة واضحة فى الاطفال الذين يطلبون معرفة كل ما تقع عليه أبصارهم . ثم يأخذ فى الضعف والتلاشى كلما تقدمت بهم السن حتى يزول تماما . وبزواله ينتهى الذكاء النشط أيضا

وعلى الرغم من أن مدى الفضول وقوته يضعفان بعد الطفولة الا أن نوعه قد يتحسن. ولايضاح ذلك نذكر ان الفضول الى معرفة المبادىء العامة يدل على مستوى من الذكاء أرفع مما يدل عليه الفضول الى الحقائق الثابتة . والفضول الذى يخلو من المنفعة الذاتية هو بطبيعة الحال أرقى من الفضول الذي يتجه الى الفائدة . وقد لا يكون من الصواب أن نقول أن أحسن الفضول ما خلا من النفع ولكننا لانخطىء إذا قلنا أن أحسن الفضول ما كانت علاقته بالمنفعة غير مباشرة أو ظاهرة بحيث تحتاج فى كشفها الى مقدار خاص من الذكاء

والفضول المثمر يجب أن يكون مصحوبا بالقدرة على التحصيل . وهذه القدرة بدورها تتوقف على قوة الملاحظة وعلى الايمان بامكان التعلم والصبر والتوفر على العمل . ولكن الفضول يحيا فى احتكاك

وصراع دائم مع مختلف الاهواء الاخرى التى تزخر بها الحياة الانسانية وهو لذلك يحتاج الى فضائل ذهنية خاصة أهمها أن يكون المرء « واسع التفكير » حتى يستطيع أن يقبل الحقائق الجديدة التى تخالف ما يرغب فيه أو ما اعتاده . فسعة التفكير أذن ينبغى أن تكون من الصفات التى تعنى التربية بها أكبر العناية

ومن الأمور التى تؤثر فى الذكاء علاقة الفرد بالمجموع والى أى مدي يجب أن تكون هذه العلاقة . . . وبعبارة أخرى عند أى حد ينبغى أن يتحرر الفرد من المجموع ؟ والفرد كما نعلم يحب أن يقف دائماً إلى جانب الفريق الذى يناصره سواء اكان ذلك اسرته أوجيرانه أو زملاءه أو حزبه السياسى أو وطنه . كما أن العواطف تنتقل بالعدوي كالوباء . وهذا أمر مشاهد فى اى اجتماع يظهر فيه ميل الجمهور وحماسته الى ناحية من النواحى . . . لأن هذه الحماسة تثير فى الموافقين موافقتهم وتثير فى المعارضين معارضتهم على السواء . ولعل خير اتجاه أن يكون الانسان مقيداً بغريزة الجماعة فى الامور العامة التى لا تمس صالحه الشخصى أو تتوقف على ميله الذاتى . أما حيث يتصل الامر بالمنافسة أو التصرف فى الامور الخاصة فينبغى أن يترك لكل انسان حريته دون أن تخليه هذه الحرية من ضرورة التعاون مع الجماعة ودون أن تمنعه من ابداء رأيه فى الأمور العامة حتى ولو خالف فيها رأي المجموع . والدنيا التى يعتنق أهلها هذه المبادىء ستنكر نظاما مثل نظام الفاشية بل أنها لن تعرفه لأن أنصاره كلهم أناس ملأ الخوف قلوبهم وجردهم من حرية التفكير والعمل والجماعة من الرجال والنساء معاً ـ التى تملك الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء ـ ستخالف كل جماعة أخرى من الناس قبلها كما أنها ستتمتع بالسعادة وسيزول منها الشقاء . فان أهم أسباب الشقاء هى اعتلال الصحة والفقر واختلال الحياة الجنسية . وكل هذه عيوب ستتناولها الحالة الجديدة بالتعليم الصحيح والاصلاح الشامل . وستعنى عناية خاصة بتربية جيل جديد من النساء اللواتى لا يعرفن الخوف . فقد ظل الخوف — فى اعتقاد الناس — زمنا طويلا هو الضمان الوحيد لفضيلة المرأة فكانت المرأة تلقن الخوف وتحرم من الحب على هذا الزعم . وهذه المرأة هى التى كانت تشجع القسوة والنفاق فى زوجها وتفسد الغرائز السليمة فى أبنائها . فجيل واحد من النساء اللواتى لا يعرفن الخوف سوف يغير العالم لانه سوف يقدم اليه رجالا لا يعرفون الخوف أنفسهم .. تفيض قلوبهم بالاخلاص والكرم وتنزع نفوسهم الى الحرية ويتجهون الى الهدف فى صراحة واستقامة ويزيلون بحماستهم الآلام التى نعانيها الآن من حالة الخمول والجبن والقسوة والغباوة التى توجه حياتنا فى الوقت الحاضر . والتعليم وحده هو المسئول عن وجود هذه الصفات السيئة وعن بقائها كما أنه هو وحده المسئول عن زوالها . فلنرقب فجر الدنيا الجديدة فى اصلاح التعليم

دكتور صبرى جرجس